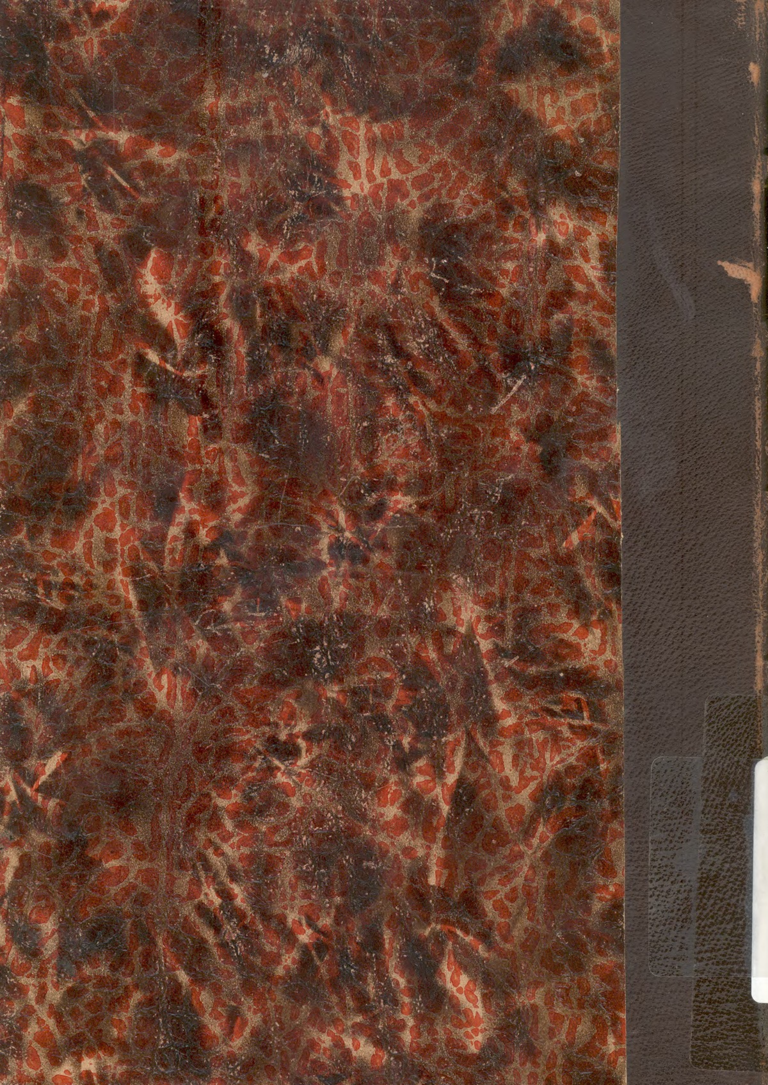
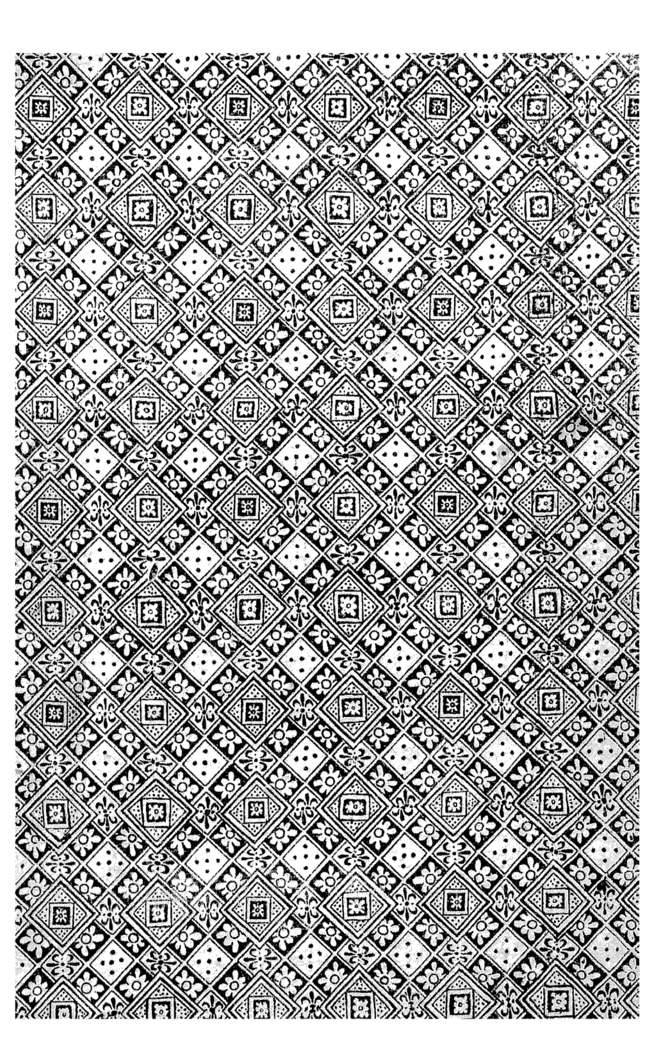
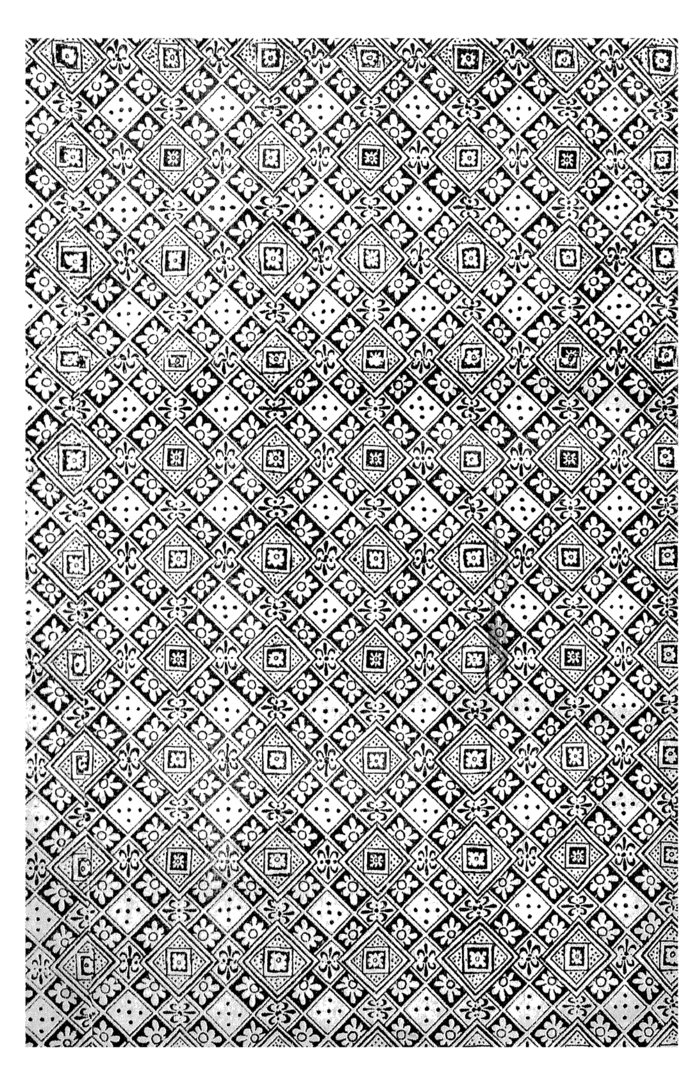






ثبوت النبوة بالقرآن

دين الأخوة الإنسانية والسلام

﴿ تأليف ﴾

السيد محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿صدرت الطبعة الاولى في يوم المولد النبوى الشريف سنة ١٣٥٢هـ﴾

الموافق شهر يوليه (تموز) سنة ١٩٣٣ م

مطبعة المنار بمصر

(د) جماعة [illegible] سلام في مصر

(هـ) الجمعيات الاسلامية في جميع الاقطار

ايها السادة الخادمون للاسلام

انني لم أطلع على كتاب يصلح لدعوة شعوب المدنية الحاضرة الى الاسلام ببيان البراهين العقلية والتاريخية على كون القرآن وحيا من الله تعالى لا وحيا نفسيا نابعا من استعداد محمد (ص) كما يزعم بعض المتأولين لاعجازه منهم ـ وبيان ما فيه من الاصول والقواعد الدينية والاجتماعية والسياسية والمالية والدفاعية السلمية التي يتوقف على اتباعها صلاح البشر وعلاج المفاسد المادية وفوضى الاباحة وخطر الحرب العامة التي استهدفت لها جميع الدول والشعوب في هذا العهد ـ فتوخيت أن يكون هذا الكتاب مبينا لذلك، وأن يكون أمضى مدية لقطع ألسنة الطاعنين في الاسلام من دعاة الاديان الاخرى، فأرجو ان أجد من جماعاتكم المباركة التي تألفت للدفاع عن الاسلام والدعوة الى إحياء هدايته خير عون منكم لمساعدتي على تعميم نشره بين المسلمين، وترجمته باللغات التي يجب دعوة أهلها الى الاسلام لنشره فيهم، وتفضلوا باخباري بما ترونه في ذلك. ولكم الشكر والثناء والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من أخيكم

محمد رشيد رضا

منشيء المنار بمصر

مقدمة كتاب الوحي المحمدي

بسم الله الرحمن الرحيم

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالملائكةُ وأُولوا العِلْمِ قائماً بالقِسطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هوَ العَزيزُ الحَكيم * إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الاسلامُ ؛ وَما اخْتَلَفَ الذين أُوتُوا الكتابَ إِلاَّ مِنْ بَعدِ ما جاءهم العِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ. وَمَنْ يَكفُرْ بآيتِ اللهِ فانَّ اللهَ سَريعُ الحِسابِ * فإِنْ حاجُّوكَ فقلْ أَسلمْتُ وَجهيَ للهِ ومَن اتَّبعَنِ ، وَقُلْ للذين أُوتوا الكتبَ والأُمِّيّينَ أَأَسلمتُمْ ؟ فانْ أَسلموا فَقَدِ اهتَدَوْا ؛ وَإِنْ تَوَلَّوْا فانما عليكَ البلغُ وَاللهُ بَصيرٌ بالعِبادِ (آل عمران ٣:١٨ - ٢٠)

﴿ ارتقاء البشر المادي وهبوطهم الادبي ، وحاجتهم الى الدين ﴾

إن من المعلوم اليقيني الثابت بالحواس أن علوم الكون المادية تثب في هذا العصر وثوبا يشبه الطفور ، وتؤتي من الثمار اليانعة بتسخير الطبيعة للانسان ماصارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة ، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة ، وكأن شعوبها أسر (عائلات) لأمة واحدة في هذه البيوت (الأقطار) يمكنهم أن يعيشوا فيها اخوانا متعاونين ، سعداء متحابين ، لو اهتدوا بالدين

وإن من المعلوم اليقيني أيضا أن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مطردة لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها ، فهم يزدادون إسرافا في الرذائل ، وجرأة على اقتراف الجرائم ، وافتنانا في الشهوات البهيمية ، ونقض ميثاق الزوجية ، وقطيعة وشائج الارحام ، ونبذ هداية الاديان ، حتى كادوا يفضلون الاباحة المطلقة على كل مايقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل ، بل رجع بعضهم الى عيشة العري في أرقى ممالك أوربة علما وحضارة ، كما

يعيش بعض بقايا الهمج السذج في غابات افريقية وبعض جزائر البحار النائية عن العمران

وإن من المعلوم اليقيني أيضا أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جناية عليهم وعلى الانسانية - من جنايتهم على أنفسهم - باغرائها اضغان التنافس بينهم ، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة ، في أشهر أو أيام معدودة ، وتفني الملايين فيها من غير المحاربين كالنساء والاطفال ، وبصرفها معظم ثروات شعوبها في هذه السبيل وفي سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها ، وسلبها لثروتهم وحريتهم في دينهم ودنياهم ، فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية ، وكل ماعقد من المؤتمرات لدرء اخطارها لم يزد نارها إلا استعارا ، ولو حسنت نياتها وانفقت هذه الملايين التي تسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم في سبيل الاصلاح الانساني العام لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء

كل ماذكر معلوم باليقين ، فهو حق واقع ماله من دافع ، ومن المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية ان هذه الشرور كانت لازمة لها ، ونمت بنمائها ، فكان هذا برهانا على أن العلوم والفنون البشرية المحض غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا ، فضلا عن سعادتهم في الحياة الآخرة ، وانما تتم السعادتان لهم بهداية الدين ، فالانسان مدني بالطبع ، ومتدين بالطبع ، أو بالفطرة كما يقول الاسلام

من أجل ذلك فكر بعض عقلاء أوربة وغيرهم في اللجوء الى هداية الدين ، وانه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها ، وتمنوا لو يبعث في الغرب أو في الشرق نبي جديد بدين جديد يصلح الله بهدايته فسادها ، ويقوم بها منآدها لان الاديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها ، وكان مايسمونه دين المحبة ، مصداقا لآية (فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة)

الحجب بين الافرنج وحقيقة الاسلام

بيد ان هؤلاء لايعرفون حقيقة دين القرآن ، وهو الدين الالهي العام والمانع لهم من معرفته ثلاثة حجب تحول دون النظر الصحيح فيه ، وعدم فهمهم للقرآن كما يجب أن يفهم ، فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالايجاز :

(الحجاب الاول) الكنيسة أو الكنائس التي عادته منذ بلغتها دعوته، وطفقت تصوره بصور مشوهة باطلة بدعاية عامة فيها من افتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان ، مالم يعهد مثله في أهل ملة من البشر في زمن من الازمان، وألفت في ذلك من الكتب والرسائل والاغاني والاناشيد والقصائد، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق ، ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته من أركان التربية والتعليم في جميع المدارس التي يتولى اتباعها تعليم الناس فيها، فما من أحد يتعلم فيها من اتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح وللمسيحيين كافة فيجب عليه عداوتهم ما استطاع ، والحق الواقع ان الاسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها، وان محمدا ﷺ هو الفارقليط روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام

(الحجاب الثاني) رجال السياسة الاوربية ، فانهم ورثوا عداوة الاسلام من الكنيسة وتلقوا مفترياتها في الطعن عليه بالقبول ، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه. طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم

وإذا كان رجال الدين قد ملأوا الدنيا كذبا وافتراء على الاسلام - ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والايثار - فأي شيء يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان والقسوة والاثرة والخداع ، وهو مانراه بأعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم في المستعمرات الاوربية ؟ بل نحن نعلم أن سبب افتراء رجال الدين على الاسلام هو السياسة لا الدين نفسه، وان قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الواسطة» سياسية لا إنجيلية . فما كان لدين أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وان دينية

(الحجاب الثالث) سوء حال المسلمين في هذه القرون الاخيرة ، فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم ، حتى صاروا حجة لأعدائهم فيهما على انه لاخير فيهم ولا في دينهم ، وأمكن لهؤلاء الاعداء أن يقنعوا بهذه الحجة الداحضة أكثر من يتخرج في مدارسهم السياسية والتبشيرية من ملتهم حتى نابتة المسلمين أنفسهم ، وهم يختارون من هذه النابتة الافراد التي تتولى أعمال الحكومة والتعليم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي، بأي

اسم من أسمائه من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب، أو لنفوذهم السياسي والتعليمي كما فعلوا في بلاد الترك وإيران، لتساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع، وقد كان السيد جمال الدين الافغاني حكيم الاسلام وموقظ الشرق يرى ان هذا الحجاب أكثف الحجب الحائلة بين شعوب أوربة والاسلام، ونقل لي الثقة عنه انه قال: إذا أردنا أن ندعو أوربة إلى ديننا فيجب علينا أن نقنعهم أولا إننا لسنا مسلمين، فانهم ينظرون الينا من خلال القرآن هكذا: — ورفع كفيه وفرج بين أصابعهما — فيرون وراءه أقواما فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل... فيقولون لو كان هذا الكتاب حقا مصلحا لما كان اتباعه كما نرى

لا ننكر أن بعض أحرار الافرنج قد عرفوا من تاريخ الاسلام ما لم يعرفه أكثر المسلمين فأنصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة، ومن مباحث عامة في العلم والدين، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة، ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مبينا لحقيقته كلها، ولم يطلع عليه إلا القليل من شعوبهم، وكان جل تأثيره في أنفس من اطلعوا عليه أن بعض الناس أخطأوا في بيان تاريخ المسلمين فانتقد عليهم آخرون، فهي لم تهتك الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الاسلام

وأما عدم فهمهم للقرآن كما يجب — وأعني به الفهم الذي تعرف به حقيقة اعجازه وتشريعه وكونه هو دين الله الاخير الكامل الذي لا يحتاج البشر معه الى كتاب آخر ولا الى نبي آخر — فله أسباب

الاسباب العائقة عن فهم الاجانب للقرآن

(أولها) جهل بلاغة اللغة العربية التي بلغ القرآن فيها ذروة الإعجاز في أسلوبه ونظمه وتأثيره في أنفس المؤمنين والكافرين به جميعا، فأحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية في العرب والانقلاب العام في البشر، كما شرحناه في هذا الكتاب. وقد كان من اكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها علماء المسلمين موضوع تحدي البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه إعجازه، وجعلوا عجز العرب الخلص عن معارضته بها ثم عجز المولدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها من فنون النحو والبيان، هو الحجة الكبرى على

نبوة محمد ﷺ وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة الا أفرادا متفرقين منهم - فما القول في غيرهم ؟ فعلماء المسلمين في هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يدعون أنهم يدركون سر هذا الاعجاز أو يذوقون طعمه، بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم ان الاعجاز واقع غير معقول السبب، فما هو الا ان الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته. والصواب ان منهم من حاول المعارضة فعجزوا، اذ ظنوا ان اعجازه بفواصل الآيات التي تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا، ومن متأخري هؤلاء من ادعى النبوة كمسيح الهند القادياني الدجال، ومن ادعى الالوهية (كالبهاء) وقد اخفى أتباع هذا كتابه الملقب بالاقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس

(ثانيها) ان ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الافرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، وإنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم وقلما يكون فهمه تاما صحيحاً، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمنا، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه وقصور لغته، وقد اعترف لي ولغيري بهذا مستر (محمد) مارماديوك بكتل الذي ترجمه بالانكليزية وجاء مصر منذ ٣ سنوات فعرض على بعض علماء العربية المتقنين للغة الانكليزية ما رأى انه عجز عن أداء معناه منه وصحح بمساعدتهم ما ذاكرهم فيه

واعترف بذلك الدكتور ماردريس المستشرق الفرنسي الذي كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية لدولته بترجمة ٦٢ سورة من السور الطول والمئين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل. وقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة ١٩٢٦ ما معناه:

« أما أسلوب القرآن فانه أسلوب الخالق جل وعلا، فان الاسلوب الذي ينطوي على كنه الكائن الذي صدر عنه هذا الاسلوب لا يكون الا إلهياً. والحق الواقع ان أكثر الكتاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لسلطان تأثيره (في الاصل: لتأثير سحره، يعني تأثيره الذي يشبه السحر في كونه لا يعرف له سبب عادي) وان سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل أجانب المبشرين يعترفون بالاجماع بعدم امكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن

« ذلك ان هذا الاسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو (١) كان نثراً جد طريف ، يفيض جزالة في اتساق نسق ، متجانساً مسجعاً ، فعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية . « لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الانسان أداء تأثير هذا النثر البديع (الذي لم يسمع بمثله) بلغة أخرى ، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة (التي لا سعة فيها للتعبير عن الشعور) المرنة (التي لا تتنازل عن حقوقها) والقاسية ، وزد على ذلك ان اللغة الفرنسية ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية وما استعملت قط للتعبير عن الالوهية » اه

ثم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة نقل شيء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الاصل ، وتساءل هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا؟ يعني انه يشك في ذلك

(ثالثها) ان أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي ، وطريقته في مزج العقائد والمواعظ والحكم والاحكام والآداب بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في السور — وهو ما بينا سببه وحكمته في هذا الكتاب — قد كان حائلا دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده في باب خاص به كما فعلوا في آيات الاحكام العملية من العبادات والمعاملات ، دون القواعد والاصول الاجتماعية والسياسية والمالية التي يرى القارىء نموذجها في هذا الكتاب ، إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة اليها كما نشعر في هذا العصر

وقد عني بعض الافرنج بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها ووضع كل منها في باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه ، ولكنه أخطأ في كثير من هذه المعاني وقصر في بعض ، على ان أخذ القواعد والاصول العامة من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبي ﷺ وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه ، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده ، كما يعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن بالاختصار ، وما فصلناه منها في تفسير المنار

(١) يعني العرب الذين تغلب عليهم البداوة حتى في حواضرهم كمكة ويثرب

(رابعها) ان الاسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول ﷺ بالحكم. وتتولى نشره بالعلم، ولا جمعيات دينية تتولى بحمايتها الدعوة اليه بالحجة، وليس لاهله مجمع ديني علمي يرجع اليه في بيان معاني القرآن وهدايته في سياسة البشر ومصالحهم العامة التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ومخترعات العلوم والفنون، وفيما يتعارض من العلوم ونصوص الدين. فيرجع اليها علماء الافرنج في استبانة ما خفي عليهم من نصوصها

وأعجب من هذا وأغرب ان المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الاولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ومن بيان الرسول ﷺ له كما أمره الله تعالى فيه بقوله (١٦:٤٤ وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وما زالوا يهجرون الاهتداء بهما حتى استغنوا عنهما استغناء تاما بأخذ عقائدهم عن كتب المتكلمين، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر ولاسيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية، حتى صار المسلمون منا، يأخذون عنهم ما كانوا يأخذون عنا، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء، وروايات الكذابين والضعفاء ما قد يعد حجة على الاسلام وأهله، كما أن سوء حال المسلمين في فشو الجهل في شعوبهم والفساد والانحلال في حكوماتهم قد اتخذ حجة على دينهم، فصاروا فتنة للذين كفروا به

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايته، فكيف يكون حال الشعوب التي نشأت على أديان أخرى ألفتها، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها؟ ودول حربية قد عادوا الاسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود، ولكنه دين الله الحي القيوم فهو باق ما دام البشر في الارض لا يزول أو تزول

هذه أظهر الاسباب لخفاء حقيقة الاسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية من الاجانب ومن المسلمين أيضا وتمنيهم لو يبعث نبي جديد بهداية إلهية عامة كافية لاصلاحهم

ولما كان الاسلام هو دين الانسانية العام الدائم الجامع لكل ما تحتاج اليه جميع الشعوب من الهداية الدينية والدنيوية وجب على العقلاء الاحرار والعلماء المستقلين الذين يتألمون من المفاسد المادية التي تفاقم شرها في هذا العهد أن يعنوا بهتك تلك الحجب التي تحجبهم عن النظر فيه، وإزالة الموانع التي تعوقهم عن فهم حقيقته

﴿ بيان هذا الكتاب لحقيقة الاسلام، بما تقوم به الحجة على جميع الانام ﴾

أما بعد فانني أقدم لهم هذا الكتاب الذي صنفته في إثبات (الوحي المحمدي) وكون القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملا على جميع ما يحتاج البشر من الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والمالي والحربي. وقد أطلت في بيان هذه المقاصد الاساسية بعض الاطالة لانها مثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر، وأما توفية هذا الموضوع حقه فلا يكون إلا في سفر كبير يجمع مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر اليها في أمور معاشهم ومعادهم، وهو ما أبينه في تفسير المنار بالتفصيل في شرح آياتها، وباجمال قواعد كل سورة وأصولها في آخر تفسيرها

على أنني لم أكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض وانما بدأت منه بفصل استطرادي لتفسير آية (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم) الخ من أول سورة يونس بينت به الدلائل القطعية على أن القرآن وحي من الله تعالى كان محمد ﷺ يعجز كغيره عن مثله بعلمه ولغته، وانه ليس وحياً نفسيا نابعا من نفسه كما يزعم بعض الباحثين من الافرنج وغيرهم، وأنه أعم وأكمل وأثبت من كل وحي كان قبله، وان حجته قائمة على المؤمنين بالوحي وغيرهم، ثم بدا لي في أثناء كتابته أن أجرده في كتاب خاص أدعو به شعوب الحضارة المادية من الافرنج واليابان الى الاسلام، بتوجيهه أولا الى علمائهم الاحرار، حتى إذا ما اهتدوا به تولوا دعوة شعوبهم ودولهم اليه بلغاتهم، ولهذا زدت فيه على ما كتبته في التفسير، ووضعت له الخاتمة التي صرحت فيها بالدعوة وجعلتها هي المقصودة بالذات منه

ولو أنني قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيبا آخر يغنيني عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار بتحقيق كل مسألة في موضعها، على ان بعض التكرار متعمد فيها. ولكنني كتبته في أوقات متفرقة، وحالات بؤس وعسرة، لا اراجع عند موضوع منها ما قبله، ولا أعتمد إلا على ما أتذكره من القرآن نفسه، على صعوبة استحضار المعاني المتفرقة في سوره، والا بعض الاحاديث في مواضعها من كتبها لتخريجها والثقة بصحتها، واني أحيل القارىء له في كل اجمال على مراجعة تفسير المنار في تفصيله، وفي كل اشكال على مراجعة محرره: محمد رشيد رضا

وحررت هذه المقدمة في ليلة المولد المحمدي سنة ١٣٥٢ منشىء مجلة المنار

فصل فى اقامة الحجة على مثبتى الوحى ونفاته

(في إثبات نبوة محمد ﷺ)

الـكلام في الوحي لمحمد ﷺ مع مثبتي الوحي

أما الفريق الاول فهم أهل الكتاب ، وان من اطلع على كتبهم المقدسة المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية علم علماً عقلياً وجدانياً انه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله ، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي، ولا نحوي أن يجحد نحو سيبويه وابن جني، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحتري، بل كما لا يستطيع بصير أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، ولله در البوصيري حيث قال :

الله أكبر ان دين محمد ... وكتابه اقوى وأقوم قيلا

لاتذكروا الكتب السوالف عنده ... طلع الصباح فاطفىء القنديلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤا في النصرانية وأحاطوا بها علماً وخبراً ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة . وهاك شهادة حديثة لعالم مستشرق منهم

كتب الاستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان انبياء بني اسرائيل في القديم، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالوهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم ذلك الالهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية اللذين يحدثان في العقل البشري المرائيَ والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها » اه

فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به انبياء بني اسرائيل انبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي اكمل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

وقد لخص هذا العالم خبر نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية مذعنا لصحة روايتها . وفصلها بعده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام[1] في كتابه (حياة محمد) مذعنا لصحة الرواية ولموضوعها مفصلا لتأثير نبوته في إصلاح البشر متمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى آسفا للشقاق بينهم

واننا ننقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (العجائب) عن احد علماء الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبني عليها الباحث المستقل العقل حكمه في نبوة انبياء بني اسرائيل ووحيهم ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين والوحي الذي انزل عليه

---

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجيم) بالجيم المصرية حيث ينشر فيها كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية. وانما اخترنا كتابته بالغين لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيه امضاءه (اميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

تعريف الوحي عندهم

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس ما نصه مع حذف رموز الشواهد:

«تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أو شعب. وجاء في (حز ١٢:١)
«هذا الوحي هو الرئيس» اي انه آية للشعب. وعلى العموم يراد بالوحي الالهام. وعلى ذلك يقال «ان كل الكتاب هو موحى به من الله» والوحي بهذا المعنى هو حلول روح الله في روح الكتاب الملهمين وذلك على انواع (١) إفادتهم بحقائق روحية او حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل اليها إلا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاها او تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال «تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» وهنا لا يفقد المتكلم او الكاتب شيئا من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ماعنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى. ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وماشابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما اوردوه من شرحه، غير ان جميع المسيحيين يتفقون على ان الله قد اوحى لأولئك الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي» اه

تعريف النبوة والانبياء عندهم

وجاء في تفسير « نبي أنبياء نبوة » منه ما نصه:

« النبوة لفظة تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد. وسمي هارون نبيا لانه كان المخبر والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته. أما انبياء العهد القديم فكانوا ينادون بالشريعة الموسوية، وينبئون بمجيء المسيح. ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في ايام صموئيل

أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل باحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأريحا والجلجال وأماكن اخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى ابا اوسيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرنمون ويلعبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين او طوافين يضافون عند الاتقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانباء بما سيأتي ، انما اختص بهذه الخصوصية اناس منهم كان الله يقيمهم وقتا دون آخر حسب مشيئته ، ويعدهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على ان بعض الانبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كعاموس مثلا فانه كان راعيا وجاني جميز . اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالاحلام والرؤى والتبليغ . وأحيانا كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلة بدون تمييز ازمنتها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين باتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر . ومن هذا القبيل اقتران خراب اورشليم بحوادث يوم الدينونة

«وقد ارسل الله الانبياء الملهمين ليعلنوا مشيئته وليصلحوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم ؛ وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبيههم وارشادهم الى سبيل الحق . وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه»

مايرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الالهام بحلول روح الله في روح الملهم فهو تحكم للنصارى لايعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماؤهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلاف فيما كتبه أولئك الملهمون . وماخالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله :ان في شرح ذلك التعليم دقة وان العلماء اختلفوا في شرحه الخ ، ومن حل فيه روح الله صار الها اذ المسيح لم يكن الها عند النصارى الا بهذا الحلول فكيف يقع في مثل ماذكر و يتخلف وحيه او يخالف الواقع؟

وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه مايأتي :

«١» ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقي والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل مايؤثر في الانفس ويحرك الشعور والوجدان ، ويثير روا كد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقيين من سقاة الخمر الملك بابل (ارتحششتا) ومغنيين له، وان يكونا قد استعانا بتأثير غنائهما في نفسه على سماحه لهما بالعودة بقومهما الى وطنهما واقامة دينهما فيه

فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الاقناع بها بالتخييلات الشعرية والالهامات الكلامية ، والمؤثرات الغنائية والموسيقية . والمعلومات المكتسبة. فأين هي من نبوة محمد الأمي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً؟ وقد جاء بأعظم مما جاءوا به كلهم ؟

«٢» ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متنسكين أوطوافين على الناس يعيشون ضيوفا عند الاتقياء المحبين لرجال الدين كما هو المعهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين ، ومن المعلوم أن هؤلاء هم الذين يقبلون من

رجال التنسك كل مايقولون ، ويسلمون لهم مايدعون ، ويذيعون عنهم كل مايقبلون منهم، ومن غير هؤلاء الكثيرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبائر المعاصي ، وان من أخبار الصوفية والنساك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم الى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها

«٣» أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة وكلها تقع لغيرهم ،وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سنبينها بعد . والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرؤيا ملك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ،ورؤياه هو في صغره

«٤» ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلة وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى كانت أحيانا كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولاحوادثها فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يعهد في كل عصر من أخبار العرافين والمنجمين، بله الروحانيين الكاشفين، ومنها ماظهر خلافه كما أشار اليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه. وكان أعظم نبوات هؤلاء الانبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) وملك اسرائيل ولا يزال اليهود ينتظرونها ثم اخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لاجل دينونية العالم وانه لاينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله .وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

فأنى تضاهي هذه الاخبار (النبوات) وهي كما علمت أنباء القرآن الكثيرة بالمغيبات كالذي بيناه في خلاصة تفسير السورة السابقة (التوبة) مما وقع من المنافقين وما هو في سورة الفتح . وقوله تعالى في أول سورة الروم (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) الآية ،وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم

وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيفتحون بعده بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر ويستولون على ملك كسرى وقيصر حتى انه سمّى كسرى عصره باسمه كما رواه البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟

هذا ما يقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الاخبار عما سيكون في مستقبل الزمان ، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية ، وسأذكر ما يتأوله به الجاحدون للنبوة والوحي في بيان بطلان شبهتهم

وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الاعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ماذكروه من كونه لا يمكن أن يصل اليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية فيتعين أن يكون بوحي من الله (وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره ، فيتعين أن يكون وحياً

فأما الاول الخاص بشخص الرسول فان العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ أنبياء بني اسرائيل عليهم السلام فانه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وان قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الامم وعلوم التشريع والفلسفة ، حتى إن مكة عاصمة بلادهم ، وقاعدة دينهم ، ومثوى كبرائهم ورؤسائهم ، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها ، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها ، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط ، فما جاء به من الدين التام الكامل ، والشرع العام العادل ، لا يمكن ان يكون مكتسباً ولا ان يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما بيناه من قبل ، وسندفع ما يرد من الشبهة عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

ويرى تجاه هذا أن موسى أعظم اولئك الانبياء في عمله وفي شريعته وفي هدايته

قد نشأ في اعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الارض وأرقاه تشريعا وعلما وحكمة وفنا وصناعة ، وهو بيت فرعون مصر ، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذلين، تذبح أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، تمهيداً لفنائهم ومحوهم من الارض ، ثم انه مكث بضع سنين عند حميه في مدين وكان نبيا - او كاهنا كما يقولون - فمن ثم يرى منكرو الوحي ان ماجاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشيء في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ

ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في اكثر أحكامها لشريعة حمورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى وقد قال الذين عثروا على هذه الشريعة من علماء الالمان في حفائر العراق انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى كما شرحنا ذلك في مجلد المنار السادس وذكرنا خلاصته في تفسير سورة التوبة (٩:٣٠) وهو في [ص٣٤٨ ج ١٠] وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك انه ان لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيا من الله تعالى ، ولم ينقل ان حمورابي ادعى ان شريعته وحي من الله تعالى

ثم يري الناظر أن سائر أنبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها ، وانهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحد منهم مع محمد، ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا ينبأ غيبي - بل يرى ان عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلاهم ذكراً ، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعا لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لجمود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا انه لا يكثر على رجل مثله زكي الفطرة ذكي العقل ناشيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية ، غلب عليه الزهد والروحانية ، أن يأتي بتلك الوصايا الادبية ، ونحن

المسلمين لا تقول هـذا وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقليون وألوف منهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لدين من الاديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتنزيهه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله، ومن عباداته وآدابه المزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل وحكمه الشوري المرقي للاجتماع البشري ـ كل ذلك أرقى مما في التوراة والاناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا ووجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير [آخرها ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير]

ومن نظر في قصة آدم ونوح وابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجهل والندم على خلق البشر والانتقام منهم، ووصف الانبياء ايضا بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوء، من حيث يجد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف انبيائه ورسله بالكمال وأحاسن الاعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارئها إيمانا وهدى، فأخبار الانبياء في كتب العهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك، والثمار والازهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار، والعسل المشتار من جنى تلك الثمار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله

وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) لاحد علماء الانكليز، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك

﴿ صد الكنيسة* عن الاسلام وبغيه عوجا ﴾

ان رجال الكنيسة لم يجدوا مايصدون به اتباعها عن الاسلام بعد أن رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية وكاد يقضي على النصرانية في الشرق ثم امتد نوره إلى الغرب الا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبيه وكتابه بالافك والبهتان وفحش الكلام الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين اكذب البشر واشدهم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه

وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون ، ويتهيجون بما ينظمون وينشدون ، حتى اذا ما اطلع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحوهم اقبح الفضائح ، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للموسيو درمنغام وهذان الكاتبان افرنسيان من طائفة الكاثوليك "اللاتين" ، وقد صرحا كثيرهما بان كنيستهم هي البادئة بالظلم والعدوان ، والافك والبهتان ، وبأدب المسلمين في الدفاع (*)

(*) قال موسيو درمنغام ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخلف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أكبر الخلاف . فمن المجادلين البيزنطيين الذين أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكلفوا أنفسهم - فيما خلا جان داماسين - مؤنة دراسته ولم يحارب الكتاب والنظامون (يعني الشعراء) مسلمي الاندلس الا بأسخف المثالب . فقد زعموا محمداً لص نياق (؟) وزعموه منهمكاً على اللهو وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصابة من قطاع الطرق بل زعموه قساً رومانياً مغيظاً ان لم ينتخب لكرسي البابوية .. وحسبه بعضهم الهاً زائفاً « يقرب له عباده الضحايا البشرية » وان جيبر دنوجن نفسه وهو رجل جد ليذكر أن محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا) وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الخنازير وذلك ليفسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان . . . وذهبت الاغنيات الى حد أن جعلت محمداً صنماً من ذهب وجعلت المساجد الاسلامية برابي (معابد أصنام) ملآى بالتماثيل والصور . وقد تحدث واضع أغنية أنطاكية حديث من رأى صنم « ماحوم » مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق فيل على مقعد من الفسيفساء وأما أغنية رولان التى تصور فرسان شارلمان يحطمون الاوثان الاسلامية فتزعم أن مسلمي الاندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم (هو ماحوم ويعنون به محمد) وابولون . وتحسب « قصة محمد » ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد الازواج . وقد ظلت حياة الاحقاد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فمنذ رودلف دلوهيم الى وقتنا الحاضر قام نيكولا دكيز وفيفس ومراتشي وهوتنجر وبيليا نلار وبريدو وغيرهم فوصفوا محمداً بأنه دجال والاسلام بأنه مجموعة من الهرطقات (الكفر) كلها وأنه من عمل الشيطان والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيج من السخافات . اهـ المراد منه على كثرته ، وابهام في ترجمته ، وهو قليل من اسرافهم

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الانجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الاصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الاسلام، لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من النزاهة والادب، والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافترائهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علمائهم اصرح قولا، ولعلهم أكثر من اللاتين عدداً، وكذلك الذين اهتدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الاسلام في أوربة والولايات المتحدة الاميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية

مسألة الآيات والعجائب أي الخوارق

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من تجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لا له، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي ايد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الافرنج عليه اكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لان أساسه قد بني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الافراد، وترقية مصالح الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان

كفاك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليتم

واما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها. وأمثال هذه الامور تقع من اناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين اكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسنبين ما جاء به الاسلام فيها من الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه :

« عجيبة: حادثة تحدث بقوة الهية خارقة لمجرى العادة الطبيعية لاثبات ارسالية من جرت على يده اوفيه. والعجيبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لاضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لابمعا كستها ، وهي اظهار نظام اعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي ، ولنا في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة امر العجائب اذ بها نرفع اليد وبذلك نوقف ناموس الثقل · ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها ويحصره لانها عوامل لمشيئته . ويناط فعل العجائب بالله وحده او بمن سمح له بذلك

« واذا آمنا بالاله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بامكان العجائب وكانت العجيبة الاولى خليقة الكون من العدم بارادته تعالى . اما المسيح فاقنومه عجيبة ادبية عظيمة ، وعجائبه لم تكن الا اظهار هذا الاقنوم واعماله ، واذا آمنا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه .اما الشيطان فعجائبه كذابه

« ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيح بعجائبه لاثبات لاهوته وكونه المسيح ، وكان يفعلها لتمجيد الله ولمنفعة نفوس الناس وابدانهم ، وكان يفعلها ظاهراً امام جماهير اصحابه واعدائه ولم ينكرها اعداؤه غير انهم نسبوها لبعلزبول(١) وسواء امتحناها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها الى ارساليته الالهية ظهرت لكل من كان خاليا من الغرض صحيحة .فاذا لم نسلم بصحتها التزمنا ان نقول بان مقرريها كذابون الامر الذي لايسوغ ظنه بالمسيح والرسل

« وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطرار اليها(٢) ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الحاصلة من هذه الديانة مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى ان يجددها في أي وقت شاء » اه :

ثم وضع المؤلف جدولا احصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم

(١) اي الى الشيطان والاناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آنفا

(٢) هذا مذهب البروتستانت واما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر ،

وعمورة على قوم لوط الى «خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت» فبلغت ٦٧ عجيبة وقفى عليه بجدول العجائب المقرونة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس» الى «الصعود إلى السماء» فبلغت ٣٧ . وعزز الجدولين بثالث في « العجائب التي جرت في عصر الرسل » اي الذين بثوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من « انسكاب الروح القدس يوم الخمسين» الى «شفاء أبي بوبليوس وغيره» فكانت عشرين . وقد صرح بان يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

اقول : ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة شفاء مرضى ومجانين لابستهم الشياطين وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم ومابقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء الى خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل، واشباع خمسة آلاف مرة واربعة آلاف مرة أخرى، وضرب التينة العقيمة بما أيبسها ، وقيامة المسيح وصيد السمك والصعود . واننا نلخص رواية الاناجيل لأهمها وهو إحياء الموتى ونذكر مايقوله فيها منكرو العجائب

الميت الاول شاب من مدينة نايين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي فاستوقف النعش وقال له: أيها الشاب لك أقول قم . فجلس وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا ٧: ١١ـ ١٦)

- الثاني صبية ماتت فقال له أبوها وكان رئيساً : ابنتي الآن ماتت لكن تعال فضع يدك عليها فتحيا. فجاء بيت الرئيس ووجد المزمرين والجمع يضجون فقال لهم « تنحوا فان الصبية لم تمت لكنها نائمة » فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية (مت ٩: ١٨ ـ ٢٤)

فمنكرو العجائب يقولون أن كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن ظن الناس انهم ماتوا . ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب أحد الاطباء شهادة بموته . وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن ميتة أخذا بظاهر قوله عليه السلام

وأما الثالث فهو « ليعازر » حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه : مرض في قريتهم «بيت عنيا» فأرسلتا الى المسيح قائلتين« هو ذا الذي تحبه مريض»فمكث يومين وحضر فوجد انه مات منذ اربعة أيام فلاقته مرثا وقالت :ياسيد لو كنت هنا لم يمت أخي،ثم دعت أختها مريم فلما رأته خرت عند رجليه قائلة كما قالت مرثا وكانوا قدذهبوا الى عندالقبر للبكاء، فلمارآها تبكي واليهود الذين جاءوامعها يبكون «انزعج بالروح واضطرب » وقال « أين وضعتموه؟» فدلوه عليه فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارةوقد وضع عليه حجر، فأمر برفع الحجر فرفعوه «ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: ايها الاب أشكرك لانك سمعت لي ، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا انك أرسلتني » ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم « لعازر ! هلم خارجا » فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطتان بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب .اهـ ملخصاً من الفصل ١١ من انجيل يوحنا

أتدري أيها القارىء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية ؟ انني سمعت طبيباً سوريا بروتستنتياً يقول:انها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لاقناع اليهود بنبوته . وحاشاه عليه السلام . وانما ننقل هذا لنبين أن النصارى لايستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلا عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الالوهية ، كما فهم الذين شاهدوها ، لانه ليس لها أسانيد متصلة الى كاتبيها،ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها ، دع قول المنكرين باحتمال الاحتيال والتلبيس أو المصادفة فيها،أو عدهم اياها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة

واذا كان اعظمها وهو احياء الميت يحتمل ماذكروا من التأويل فما القول في شفاء المرضى واخراج الشياطين الذي يكثر وقوع مثله في كل زمان والاطباء كلهم يقولون ان مايدعي العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ماهو الا أمراض عصبية تشفى بالمعالجة او بالوهم والاعتقاد. ودونها مسألة الخمر والسمك ويبس التينة

آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية

هذا وان ماروا ه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة وبالمرسلة اخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بهـا رسوله محمدا ﷺ هي اكثر من كل ماروا ه الانجيليون وأبعدعن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقينها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها ،لان البشر قد بدؤا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدرعنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكمل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من موانعه ،فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهدايته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي(كما بيناه في تفسير سورة البقرة) ليربي البشر على الترقي في هذا الاستقلال ، إلى ما هم مستعدون له من الكمال

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية ، والنبوة العامة الباقية ،قد عبرعنه النبي ﷺ بقوله « مامن الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة» متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله فاحتج عليهم بالقرآن في جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه،وبهدايته وبعلومه وباعجازه،وبعدم استطاعة احد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧: ٨٨ قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) .

وأما ماأكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامة الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام. وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الاحزاب إذ تألب المشركون واليهود

على المسلمين وأحاطوا بمدينتهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال

من تلك الآيات شفاء المرضى وابصار الاعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في هذه الغزوة وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنه تسخير الله السحاب لاسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل ببدر ولم يصب المشركين من غيثها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفد ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه ليعتصروه ويبلوا به ألسنتهم على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شربا ، فقال أبو بكر يا رسول الله ان الله عودك في الدعاء خيرا فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعهما حتى كانت السماء قد سكبت لهم ماملأوا مامعهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم

تأثير العجائب في الافراد والامم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بجحودها عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ولم يؤمن بها ممن شاهدوها إلا المستعدون للايمان بها : ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها ، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها . وقال اليهود في المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما اخرج الشيطان من الانسان . وقالوا ان ابليس أو بعلزبول يفعل أكبر من فعله ، وما كان اكثرهم مؤمنين . وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : اننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه .

وقد كان اكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت انفسهم لما لا يعقلون له سبباً وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فالآتي به مظهر للخالق سبحانه ان لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك

وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة

ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤ : ٢٤)
وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم . وأقول :
ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند ، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي
آخر يريد اظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال: «الحق
اقول لكم ليس كل نبي مقبولا في وطنه » وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير
هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثمارهم تعرفونهم » ولم يظهر
بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثمار محمد ﷺ
ولا احد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢ ان لي أمورا كثيرة ايضا
ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن وأما متى جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق
فهو يرشدكم الى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس الى جميع الحق في
الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين

ومن استقرأ تواريخ الامم علم ان أهل الملل الوثنية اكثر اعتمادا على العجائب
من أهل الاديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الاولياء
والقديسين، اكثر مما نقلوا عن الانبياء المرسلين، وان اكثر المصدقين بها من الخرافيين

ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها لغيرها

وجملة القول ان نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي
الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية، وان هذا البرهان قائم ماثل للعقول
والحواس في كل زمان، وانه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ
وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من
اطوار النوع البشري هو شهادته لها . فان الكتب التي نقلتها لا يمكن اثبات عزوها الى
من عزيت اليهم، اذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواترا
ولا آحادا ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه وتناقضه ،
وتعارضه ، ولا اثبات صحة التراجم التي نقلت بها ، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مرارا
الكتاب الالهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواترا عمن جاء به بطريقتي

الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، والنبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الاسانيد حفظا وكتابة هو محمد (ص) فالدين الوحيد الذي يمكن للعلماء المستقلين في الفهم والرأي ان يعقلوه ويبنوا عليه حكمهم هو الاسلام . وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الاديان السابقة لثبوت قضاياه الاجمالية بالتواتر المعنوي ، فهو انه وجد في جميع امم الحضارة القديمة دعاة الى عبادة الله تعالى والى العمل الصالح والى ترك الشرور والرذائل منهم انبياء مبلغون عن الله تعالى مبشرين ومنذرين ، كما انه وجد فيهم حكماء يبنون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمور خاصة بأهلها وبزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم

واذ كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج الماديين ومقلدتهم عليه ، بعد مقدمة في شهادتهم الاجمالية له ، تمهيداً لدحض الشبهة ، ونهوض الحجة ، فنقول :

(درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ)

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل ، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلوها فليا ونقشوها بالمناقيش ، وقرؤا القرآن بلغته وقرؤا ماترجمه بأقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفاً ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

﴿ ان محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الاخلاق ، صادق ﴾
﴿ الحديث ، عفيف النفس ، قنوعا بالقليل من الرزق ، غير طموع بالمال ولا ﴾
﴿ جنوح الى الملك ، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر ، والمباراة في تحبير ﴾
﴿ الخطب وقرض الشعر ، وكان يمقت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات ﴾
﴿ الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر ﴾

﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته ويقينه بعد ﴾
﴿ النبوة جزموا بانه كان صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
﴿ رؤية ملك الوحي ، واقرائه اياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله ﴾
﴿ لهداية قومه فسائر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه ان كان أول الناس ايمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا ، ثم أن كان الذين آمنوا به من أعظم العرب حرية واستقلالا في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر

فاما المؤمنون بالله وملائكته وبان للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الافرنج فقد آمنوا بنبوة محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر مايتاح لهم من العلم بالاسلام ، وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لاريب في صحتها وثبوتها ، وبتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل ، الذي لا يؤمن بما وراء المادة أو الطبيعة من عالم الغيب

قدحوا زناد الفكر ، واستوروا به نظريات الفلسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الاستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشرحه ههنا .

(شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الالهي)

(وتصويرهم لنبوة محمد ﷺ)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج ، ذلك أن نفسه العالية ، وسريرته الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية ، يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والاحوال الروحية ، فيتصور مايعتقدوجوبه إرشاداً الهياً نازلا عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك ، وانما يرى ويسمع مايعتقده في اليقظة

كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فكل ما يخبر به النبي من كلام ألقي في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده

يقول هؤلاء الماديون: نحن لا نشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وانما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس، فان هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينفيه ويلحقه بالمحال ،وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون مالم يثبت

ويضربون مثلا لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الافرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قد سرت شبهته الى كثير من المسلمين المرتابين الذين يقلدون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها. وانني أفتتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على جان دارك فقد ألقي الي سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه

﴿ شبهة على الوحي ﴾

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت الى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ـ حيث وقع اختياري عليها ـ وقرأت في بابي (حاجة البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيهاً معقولا، غير ان الحاجة الى الشيء لاتستلزم وقوعه، وكذا إمكانه وعدم استحالته عقلا لا يقتضي حصوله . ثم ماذكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلائل الاعمال وبوقوع الخير للناس على يديه هو دليل نبوته وتأييد بعثته، فليس شيئا، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته صادقا في دعوته ـ اعني معتقدا في نفسه ـ سببا في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة الى الاعتقاد به والتسليم له

ولقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي اذ كانت مقهورة للانكليز

ان بنتا تدعى (جان دارك) من اجمل النساء سيرة وأسلمهن نية اعتقدت وهي في بيت اهلها بعيدة عن التكاليف السياسية انها مرسلة من عند الله لانقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها الى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا، ثم ماتت غب نصرتها موتة الابطال من الرجال، إذ خذلها قومها، ووقعت في يد عدوها فألقوها في النار حية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسما يعبق نشره وتضوع رياه. وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرقي بعيداً.

فهل نجزم لذلك أن تلك البنت نبية مرسلة ؟؟ ربما تذهبون الى ان عملها لا يذكر مقارنا بما اتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول هل هناك من ميزان نزن به الاعمال النافعة لنعلم إن كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها ان نصدق دعوة صاحبها ؟ وهل لو ساعدت الصدف (كذا) رجلا على ان يكون اكبر الناس فعلا وأبقاهم أثرا واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟

اظن أن هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترجيح ولا يستلزم اليقين ابدا. على انني أنتظر ان تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضاحا ينكشف به الحجاب وتنالون به الثواب هذا واني اعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي ولكنهم يتحفظون في الكتمان، ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا اجد في السؤال عارا، وكل عقل يخطيء ويصيب، ويزل ويستقيم (احد قرائكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يذعن لها تمام الاذعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشهوات التي تفسد الارواح والاجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ الى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة، ويقيم الحجة، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند اول قدعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لانهم شبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن

الانهماك والاسترسال فيها ، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري ، كما امات النشوء في الجهل برهانه الكسبي

ارى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها .ولكنه لم يدقق النظر في المقاصد والنتائج ،لذلك نراه مسلما بالمقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينهما ،فاذا هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله وانه أقام الكون على اساس الحكمة البالغة والنظام الكامل فانني ارجو له أن يقتنع . ثم انني آنست منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) او لعله قرأه ولم يتدبره، فانه لم يذكر البرهان على نفس الرسالة ويبني الشبهة عليه وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات، وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . وانني اكشف له شبهته أولا فأبين انها لم تصب موضعها ثم أعود إلى رأيي في الموضوع

ان [جان درك] التي اشتبه عليه امرها بوحي الانبياء لم تقم بدعوة الى دين او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع الرسلين، ولم تأت بآية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين وحركته مزعجات السياسة ، فتحرك ، فنفر، فصادف مساعدة من الحكومة، واستعداداً من الامة للخروج من الذل الذي كانت فيه، وكان التحمس الذي حركته سببا للحملة الصادقة على العدو وخذلانه . وما اسهل تهييج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين بكلمة شعرية يقولها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الفطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف (العربية للبستاني) ما نصه :

« كانت متعودة الشغل خارج البيت كرعي المواشي وركوب الخيل الى العين ومنها الى البيت ،وكان الناس في جوار دومرمي [اي بلدها] متمسكين بالخرافات، ويميلون الى حزب اورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ،وكانت جان

تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع تحب ان تتأمل في قصص العذراء وعلى الاكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت، وهي ان احدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها . ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعة وتتكلم عن اصوات كانت تسمعها ورؤى كانت تراها . ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها . ثم أوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها فقوى ذلك اعتقادها بصحة ماخيل لها »

ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أوزليان، وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة اسبوع، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت خيالاتها الحماسية، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت

فمن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت ذائعة في زمنها . وهذا شيء عادي معروف السبب وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد احمد السوداني والباب (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين، وان كانت اسباب النهضة متقاربة فان هذين كانا كأمثالها يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النوبة العصبية القصيرة الزمن، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها الى علم ولا إصلاح اجتماعي إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم، التي لاحجة تعمدها، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتعلت بنفخة وطفئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامام انها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري ، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المدبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك إلى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر المخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى . وأين دليلها من أدلة

النبوة وأين أثرها من أثر النبوة؟ إن الامم التي ارتقت بما أرشدها اليه تعليم الوحي انما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وان فرنسا لم ترتق بارشاد (جان درك) وتعليمها، وانما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستولت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلوم علمائها وحكمة حكمائها وصنع صناعها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشد اليه، فلا يقال ان ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عد سبباً بعيداً فهو شبيه بالسبب الطبيعي، كهبوب ريح تهيج البحر فيغرق الاسطول وتنتصر الامة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفتت، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأنارت الأرجاء، ولا يزال نورها ولن يزال متألق السناء، أمي يتيم قضى سن الصبا وسن الشباب هادئا سا كنا لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الاربعين بالعالم كله صيحة « انكم على ضلال مبين، فاتبعون أهدكم الصراط المستقيم » فأصلح وهو الامي أديان البشر عقائدها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه في طور جديد؟ لاجرم أن الفرق بين الحالين عظيم إذا أمعن النظر فيه العاقل

لاسعة في جواب سؤال لتقرير الدليل على النبوة وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الامالي الدينية في المنار لاسيا الدرس الذي عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وان كان يصدق على رسالة التوحيد المثل « كل الصيد في جوف الفرا » فان بقي عنده شبهة فالاولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فان المشافهة أقوى بيانا، وأنصع برهانا، ونحن نعاهده بأن نكتم أمره وإن أبى فليكتب الينا مايظهر له من الشبهة على ما في الرسالة والامالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتبهين والمرتابين اه

هذا وان مابينه الاستاذ الامام في اثبات وقوع الوحي لايستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار الا أن يقبله ويذعن له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم الامن أوتي نصيبا من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيبا آخر من بلاغة اللغة العربية . وان نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة وهو ماقهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته ، وحمل الماديين على تصويرها بما نبسطه فيما يأتي ونقفي عليه باثبات بطلانه

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل أميل درمنغام الشبهة التي اجملها مونتيه بما لم نر مثله لغيره من كتاب الافرنج حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين ، فان كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية : انكم فصلتم قميصاً من رقاع العهد القديم وألبستموها للمسيح عليه السلام – فنحن نقول لهم انكم فصلتم قميصا آخر مما فهمتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد ﷺ ، وانني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام ومابلغني عن كل احد منهم ، ثم أكر عليها بالنقض والدحض فأقول :

(١) قالوا ان محمداً قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام ، وقالوا انه كان نسطوريا من أتباع آريوس في التوحيد وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث وان محمدا لابد أن يكون علم منه عقيدته ، وقالوا في بحيرا ايضا انه كان عالما فلكيا منجما وحاسبا ساحرا ، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هاديا لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي . بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته ، وان محمداً ماحرم الخمر إلا لانه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران ، وأمثال هذا من الافتراء والبهتان ، وكل ماعرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية ان النبي ﷺ لما خرج مع عمه أبي طالب الى الشام وهو ابن تسع سنين

وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظلله من الشمس وذكر لعمه انه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود ـ وفي المسألة روايات أخرى يعمناها ضعيفة الاسانيد إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها إنه ﷺ سمع من بحيرا شيئاً من عقيدته أو دينه.

(٢) قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متنصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد أقارب خديجة ـ يوهمون القارئ انه ﷺ اخذ عنه شيئا من علم اهل الكتاب ـ والذي صح من خبر ورقة هذا هو مارواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن خديجة أخذته ﷺ عقب إخباره إياها برؤية الملك في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره وكان شيخا قد عمي ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ولم يثبت ان النبي ﷺ رآه قبل ذلك (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا البحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده ومما لم يصح له سند كدأبهم في كل ماله علاقة بالنبي ﷺ والاسلام فلم يذكر احد منهم انه عرف عنه دعوة إلى النصرانية او كتابة فيها . وإنما ورد في بعضها انه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . وفي بعضها انه عاش حتى رأى بلالا يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة الصحيح انه كان عند بدء الوحي اعمى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها وقد كان هذا بعد بدء الوحي بثلاث سنين ـ وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط الروايات عليه فيها وعدم اطلاعه على مادون في كتب الحديث منها . وإنما كان هم المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا انه كان صحابياً ام لا، فان الصحابي هو من لقي النبي ﷺ بعد البعثة مؤمنا به، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل لنقلوه.

(٣) ذكروا ما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام وتنصر بعض فصحاء العرب وشعرائهم كقس بن ساعدة الايادي وأمية بن أبي الصلت وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء أهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض ما نقل عنهم في

التوراة والاناجيل وكتب النبوات في تفسير (١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف

فأما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جمل له اورق، بكلام له مونق، قال فيه : ان لله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد أظلكم زمانه، وأدرككم اوانه، فطوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن خالفه - والروايات في هذا ضعيفة، وتعددها يدل على أن لها أصلا

وأما امية بن ابي الصلت الثقفي فهو شاعر مشهور . قال ابو عبيدة اتفقت العرب على ان امية أشعر ثقيف، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قال : كان امية في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً وكان يذكر ابراهيم واسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر وتجنب الاوثان وطمع في النبوة لانه قرأ في الكتب ان نبيا يبعث بالحجاز فرجا أن يكون هو، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي رثى قتلى بدر (المشركين) بالقصيدة التي اولها

ماذا ببدر والعقنقل من مرازبة جحاجح

وفي المرآة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر فعلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد إلى الطائف ومات فيها . وصح ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال «كاد ان يسلم» ولكنه كان حنيفيا على ملة ابراهيم ولم يتنصر ومن شعره

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

(٤) إسلام سلمان الفارسي (رض) كان فارسيا مجوسيا فتنصر على يد بعض الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي الذي بشر به عيسى والأنبياء من العرب فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود يثرب ظلماً وعدوانا ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده . وفي قصته روايات متعارضة هذا هو المراد منها لدرمنغام وغيره

(٥) ذكروا ما كان من رحلة تجار قريش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منهما كلما مروا بدير أوصومعة الرهبان ،وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(٦) زعم درمنغام انه كان يوجد بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدما لان رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيتهم وأصنامهم . وكان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المتاخمة للصحراء »!! وكانوا يتحدثون بقصص عن دينهم لاتصل الى مسامع رؤساء قريش وعظمائهم أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة . ولكنه ذكر ان اباسفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الامر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ماظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات اخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاده منها من تأثير وعبرة، فنلخصها مضمومة الى ماقبلها مع الالمام بنقدها

(٧) قال درمنغام في كفالة أبي طالب لمحمد بعد وفاة جده: انه لم يكن غنياً فلم يتح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوهم القارىء ان أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لا أصل له — ثم قال)

« ولكنه كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد التنائية وتحدق عيناه الجميلتان بمدين ووادي القرى وديار ثمود وتستمع أذناه المرهفتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبئها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات الى الشام التقى بالراهب بحيرا في جوار مدينة بصرى وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه . وفي الشام عرف محمد احبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الوقيعة بهم »

كل ماذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه الا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ماذكرنا، وكأنه لم يحفل باثباتها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها

فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه الى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر اليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق بصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب الى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في ارض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضيع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب او الاعراب في طريقها عن أنبائها والتاريخ القديم لبلادها ، ولم يعرف عن تجارها انهم كانوا يعنون بلقاء احبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم ، فمن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان ويعني بلقاء رؤسائها والبحث معهم ؟ انما اخترع هذا لانه لا يستطيع تعليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الانباء بغلب الروم للفرس كما سيأتي . وسنرى ماننفند به تعليله وتحليله وتركيبه على تقدير صحة مازعمه كله

(٨) ثم ذكر درمنغام أن العرب ولاسيا أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعدمايكون من تجارة أوحرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك ، وان التاريخ يشهد بان محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك لالفقره وضيق ذات يده قال « لكن نفس محمد كانت شغفة بان ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكأن حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أنداده جعله أشد للمعرفة شوقا وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها ، وما زال يغمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح اليه أهل مكة ـ إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لمن هداه الحق اليها لاستكناه ماتدل هذه المظاهر عليه وماتحدث الموهوبين به »

هذا الخبر من مخترعات درمنغام فمحمد لم يكن شغوفا بان يرى مايفعله فساق قومه من فسق وفجور ، ولاأن يسمع ذلك ، ولايتحرى أن يعرفه ، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت

الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً ، وقد بطل بهذا ماعلل به الخبر على مافيه من المدح المتضمن لدسيستين (احداهما) أن أنداده في قريش كانوا متعلمين وكان هو محروما مما لقنوه من العلم وكان حرمانه هذا يزيده شغفاً بالبحث والاستطلاع (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحا إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ماتدل عليه هذه المظاهر ، فهذه مدحة غرضه منها تعليل ماانبثق في نفسه بعد ذلك من الوحي ، وسترى بطلانه

(٩) ثم ذكر درمنغام مسألة أبناء النبي ﷺ القاسم والطيب والطاهر وهو يشك في وجودهم ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لاتدل على وجود ولد له بهذا الاسم وانه ان صح انهم ولدوا فقد ماتوا في المهد ، والتحقيق أنه ولد له غلام سماه القاسم وكني به وانه مات طفلا وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وان الطيب والطاهر لقبان للقاسم . ولكن درمنغام قد كبر مسألة موت هؤلاء الاولاد الذين يشك في وجودهم، وبنى عليها حكماً ،وأثار وهماً ، قال بعد أن زعم ان محمداً تبنى زيد بن حارثة لانه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

«فمن حق المؤرخ أن يجهل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديرة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر . والامر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً ،فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثير بعبر الحوادث ودروسها ،وحوادث أليمة كوفاة أبنائه جديرة بأن تستوقف تفكيره وأن تلفته في كل واحدة منها لما كانت خديجة تتقرب به إلى اصنام الكعبة وتنحر لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى تريد أن تفتدي نفسها من ألم الثكل فلا تفيد القربان ولا تجدي النحور »

« والامر كان كذلك لا ريب أن كانت عبادة لاصنام قد بدأت تتزعزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة اليها من الروم ومن اليمن متخطية اليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة»

غرض درمنغام من تكبير المصيبة بموت الابناء المشكوك في ولادتهم هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة الى الاصنام بالقرابين لينقذوها من

مصيبة الشكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة ايمانها وإيذان بعلها بعبادتها الذي كان سببه تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الاسباب التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ - والحق أنه ما تبنى زيداً الالانه آثر أن يكون عبداً له على أن يكون حرا مع والده وعمه عندما جاءا مكة لافتدائه بالمال فقال لهما «ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء» ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرفهما قال «فانا من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما» فقال زيد ما أنا بالذي أختار عليك أحداً. أنت مني بمكان الاب والعم. فقالا ويحك يازيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً. فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما. فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالاسلام. رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحق.

هذا وان محمدا لم يكن جزوعا عند موت ولد ولا غيره بل كان أصبر الصابرين، وان خديجة لم تيأس بموت القاسم من الله ان يمن عليها بولد آخر، ولم تنحر للاصنام شيئا - وان اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش، والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان، ومناة كانت صنما في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة. وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية في ذلك العهد - وزعم انه سببه انتشار النصرانية - جديراً بأن يمنع خديجة وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم الى الحنيفة ملة ابراهيم أن تهاجر الى هذه الاصنام لتنحر لها وتتقرب اليها لترزقها غلاما، فان لم يمنعها عقلها وفطرتها فأجدر ببعلها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والاصنام من طفولته كما يعترف درمنغام - ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه مالم يكن لينساه لولاه

(١٠) زعم درمنغام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب أوجد فيها حالة نفسية أدت الى زيادة إمعانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث او التحنف وفرع على ذلك قوله :

« وكان محمد يجد في التحنث طمأنينة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف، وأن

كان يجد فيها الوسيلة الى مابرح شوقه يشتد اليه من نشدان المعرفة واستلهام مافي الكون من اسبابها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفياً بالقليل من الزاد يحمل اليه ليمضي أياما بالغار طويلة في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول: ان روايات المحدثين تفيد انه حبب اليه التحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي وكان هو يحمل الزاد وماكان أحد يحمله اليه، وما ذكره ابن اسحاق من تعبده فيه في شهر رمضان كل سنة انما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي

وههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تتصل بالنتيجة المطلوبة له فأرخى لخياله العنان ، ونزع من جواده اللجام ، ونخسه بالمهماز ، فعدا به سبحاً ، وجمح به جمحاً ، وقدحت حوافره له قدحا ، وأثارت له نقعاً ، وأذن لشاعريته الفرنسية أن تصف محمداً عند ذلك الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل، وماتسفعه به شمس النهار ، وماتصور أنه كان يراه في تلك القنة من الجبل من صحارى وقفار ، وخيام وآبار ، ورعاة تهش على غنمها حيث لا أشجار ، حتى ذكر البحار على بعد البحار وقد أتقن التخيل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضعي ، ثم قال مصوراً لما يبتغيه من مشاهداته ﷺ

« وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة

« حقا ! ان في السماء لشارات للمدركين . وفي العالم غيب بل العالم غيب كله . لكن ! ألا يكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى، وأن يرهف أذنه ليسمع؛ ليرى حقا، وليسمع الكلم الخالد ! لكن للناس عيوناً لاترى وآذانا لاتسمع .. أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل تحتاج لكي تسمع ماوراء السماء من أصوات إلا الى قلب خالص ونفس مخلصة وفؤاد مليء إيمانا؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لايريد أن يعرف إلا الحق الخالص الذي لايأتيه من بين يديه ولا من خلفه باطل، وهو لايستطيع العيش إلا بالحق، والحق ليس فيما يرى حوله ، فحياة القرشيين ليست حقا ، وربا المرابين ونهب البدو ولهو

الخلعاء وكل ما إلي ذلك لاشيء من الحق فيه،والاصنام المحيطة بالكعبة ليست حقا وهبل الاله الطويل الذقن الكثير العطور واللابس ليس آلها حقا

« إذن فاين الحق وماهو »

«وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه ،وينسى كل مافي الحياة، لان هذا الذي يرى في الحياة ليس حقا. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ماوعى، فيزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وازورارا : وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الاحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد ،بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها .وفي الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء ،وساعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي ، وفي البحر وموجه وفي كل ماوراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود ـ في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب الى مكنون سره

قال درمنغام : فلما كانت سنة ٦١٠ او نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها فقد أبهظت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهريا ينقصه وينقص قومه، وان الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته ، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح وأهملوا الحقيقة العليا ،ولعلهم لم ينكروها ولكنهم نسوها نسيانا هو موت الروح . وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين اوحي به، وان اقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وانهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من انبياء أوحي اليهم به ، وكلما ضل الناس بعثت السماء اليهم نبياً يهديهم الى الصراط المستقيم ويذكرهم

بالحقيقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد ، وكلما افسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في اشد تيهاء الضلال . أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق ؟ »

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس ، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع ومعه قليل من الزاد وروحه تزداد بالصوم والسهر والادمان على تقليب فكرته صقالا وحدة . ونسي النهار والليل والحلم واليقظة ، وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار ، اومستلقياً في الشمس ، او سائرا بخطى واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه غاقبة أمره فأسر بمخاوفه الى خديجة فطأنته وجعلت تحدثه بأنه الامين وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ ، قال « ما أنا بقارىء » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة حدة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالابصار والالباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية »

أقول ان كل ماهنا من خبر أو جله فهو غير صحيح ، فمن أين علم هذا الافرنسي أن محمداً نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وانه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار أومستلقياً في الشمس الخ وانه قضى ستة أشهر في هذه الحال — قد افترى في الاخبار ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله ، غائباً عن حسه . واننا ننقل هنا أصح الاخبار في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد — من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها — لتفنيد مفترياته وللاستغناء بها عما نقله من الخلط في صفة الوحي من الفصل الآتي — وهو مارواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه

باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ

افتتح الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات» ثم قال :

حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يارسول الله كيف يأتيك الوحي[1] قال رسول الله ﷺ «أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس[2] وهو أشده علي فيفصم[3] عني وقد وعيت عنه ماقال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا[4] فيكلمني فأعي مايقول» قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروع والالهام و إلقاء الملك ، وله معنى خاص هو أحد الاقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أومن وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه مايشاء إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الاول وذكر الثالث ، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليهما الصلاة والسلام. وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع ويقع لغير الانبياء

(٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والاقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لانها كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكية الروحانية والحالة الاخرى عكسها لانها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمانية

(٣) يفصم وزان يضرب ينفك وينجلي

(٤) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريدها وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة ومابينهما بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهربائية ، والملك يتصرف في الكهربائية كما يشاء ، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى(٧: ١٤٣ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه) — راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا(١)

حدثنا يحي بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم(٢) فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه(٣) - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق(٤) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقاري،(٥) قال

(١) كان من هذه الشدة عليه ماقاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد: حتى ان راحلته لتبرك به الي الارض اذا كان راكبها ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضها اه

(٢) أكثر الرؤى أضغاث أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم، والرؤيا الصالحة عبارة عن نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لادراكها بما يكون وقت النوم من صفائها بعدم اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والافكار، ورؤيا الانبياء قبل وحي التشريع تمهيد وتأنيس للنفس تقوي استعدادها لتلقي الكلام الالهي

(٣) أصل التحنث اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع الحنيفية ملة ابراهيم: وهو رواية ابن هشام. وقوله وهو التعبد، جملة تفسيرية لراوي الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق بيتحنث

(٤) وفي رواية فجئه الحق أي بغته والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام الله تعالى، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة، وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام، وهي من مراسيل عمرو بن عبيد وهو ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي المعتمدة، وجمع بعضهم بين الروايتين بأنه رآه أولا في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة، ولو وقع هذا في المنام لزال خوفه ورعبه ﴿ص﴾ بمجرد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٥) الظاهر أن الامر بالقراءة أمر تكوين لا تكليف - أي كن قارئا، ولذلك قال له في الثالثة ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أي كن قارئا باسمه ومن قبله وباقداره اياك على القراءة لا بحولك وقوتك فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة أما وقد شاء ربك - الذي خلق، خلق الانسان من علق، وهو الحيوان المنوي أو أول ما تتحول اليه نطفة الزوجين بعد العلوق فجعله بشراً سويا يسمع ويبصر ويعقل - أن يجعلك قارئا لما يوحيه اليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئا

فأخذني فغطني(١)حتى بلغ مني الجهدثم أرسلني فقال اقرأ،قلت ماأنا بقاري،، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد،ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت ماأنا بقاري،،فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال(اقرأ باسم ربك الذي خلق* خلق الانسان من علق* اقرأ وربك الا كرم) (٢) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر «لقد خشيت على نفسي» (٣)فقالت خديجة كلا والله مايخزيك الله أبداً (٤)إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

﴿١﴾ فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرني وفي رواية الطبري للحديث فغتني بالمثناة الفوقيـة وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل معناهما الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي﴿ص﴾ حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه

﴿٢﴾ اختصره هنا وزاد في التفسير (الذي علم بالقلم* علم الانسان مالم يعلم)

﴿٣﴾ اختلف العلماء في خوفه ﴿ص﴾ على نفسه فقيل خشي الجنون وان يكون ماراه من الجن وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافقه الحافظ ابن حجر ولكن الحافظ قال انه روي من عدة طرق أقول وهو الظاهر مما أجابته به خديجة واستشكل بان الوحي يكون مقترنا بعلم قطعي بأنه من الله وان الملقن له من الملائكة وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له واعلامه إياه بذلك عند تلقينه الامر بالتبليغ وانما كان ظهور الملك له هي المرة لاجل الايناس والاعداد لتلقي وحي الاحكام ، والامر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، والا كان من تكليف مالايطاق . وقيل انه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب وثم اقوال اخرى متكلفة. وهو على كل حال يدل على انه﴿ص﴾ لم يفهم من هذه الرؤية انه صار نبيا ولا ان الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام ويؤيد ذلك مسألة ورقة

﴿٤﴾ الخزي الذل والهوان واخزاه أذله واهانه. والكل بالفتح المتعب(بفتح العين) ومن هو عالة على غيره ،وحمله اعطاؤه راحلة يركبها اوحمل اثقاله ، وتكسب بفتح التاء وضمها لغـة ورواية، والمعدوم المفقود ولايظهر معناه الا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو الفقير الفاقد لما يكفيه ، والاعانة على نوائب الحق كلمة جامعة لكل اعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل

الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الانجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب (١) وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعا. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أومخرجي هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم ينشب ورقة أن توفي (٣)

---

(١) وفي رواية التفسير يكتب من الانجيل بالعربية، وفي معناها رواية مسلم: فكان يكتب الكتاب العربي. ولا تنافي بين الروايات اذ كان يعرف اللغتين وورقة ابن عم خديجة، واما قولها له اسمع من ابن اخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطاف الرحم

(٢) الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به امين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لان الشبه بين الوحي الى موسى ومحمد عليهما السلام اتم لأن كلا منهما اوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياستها وقوتها العسكرية وعيسى عليه السلام كان تابعا لشريعة التوراة وناسخا لبعض الاحكام التي يقتضيها الاصلاح ومبشرا بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وفي بعض الروايات الضعيفة ان ورقة قال ناموس عيسى وفي رواية اخرى حسنة الاسناد في دلائل النبوة لابي نعيم ان خديجة جاءت ورقة وحدها اولا فذكرت له الخبر فقال لها : لئن كنت صدقتني انه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو اسرائيل ابناءهم اه والناموس واحد على كل حال . ولكن رواية الصحيحين « فانطلقت به » تدل على التعقيب اي انها ذهبت به عقب تحديثها بما رأى

(٣) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعد هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان يمر ببلال وهو يعذب، ومقتضاه انه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين . والمعتمد ما في الصحيح من انه توفي عقب هذا الحديث بقليل

وفتر الوحي (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الانصاري قال وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بينا أنا ماش إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصري فاذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحمي الوحي وتتابع (٢) اه

(وأقول) اخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها أول ماأنزل مطلقا وفي البعض الآخر انها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتي هنا وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله « فجئثت منه

(١) فتر الوحي انقطع موقتا ليعود. وكانت فترة الوحي ثلاث سنين -وهي مابين بدئه بأمر جبريل له بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بانذار الناس

(٢) أي اتصل مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوما متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المتفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى. وقد اختلط الامر في هذا على درمنغام فظن انها هي التي نزلت بعد فترة الوحي، والمروي انه نزل قبلها بضع سور: وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان ان النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثا (أي إلى تهجده وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد اني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل (والضحى والليل إذا سجى* ما ودعك ربك وما قلى) اه تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناهما واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ماتركك ربك وما أبغضك - وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب وبنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم. وكان هذا بعد نزول سورة (تبت يدا أبي لهب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعا شديدا فقالت خديجة اني أرى ربك قد قلاك مما يرى من جزعك فنزلت - ومعارضة رواية الصحيحين لهاته الرواية المرسلة تسقط اعتبارها وإن جمع الحافظ بينهما بأن خديجة قالت ماقالت توجعا، وحمالة الحطب قالته شماتة

رعبا »وفي رواية أخرى «فجئثت منه حتى هويت الى الارض» أي فزعت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للمفعول

هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبعدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط وروي عن علي كرم الله وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ويمكن أن يراد انها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي وتلاها فرض الصلاة ونزول سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد

(بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ)

ها أنذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا انه استفاده من اسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها ، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وفترته ، ثم كيف أمر ﷺ بتبليغه ودعوة الناس الى الحق وكيف حمي وتتابع

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه الى العقل ، ثم أقفي عليه بما ينقضه من اساسه بادلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول

يقولون ان عقل محمد الهيولاني قد أدرك بنوره الذاتي بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه — آمنا وصدقنا — وان فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتنافسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار — آمنا وصدقنا — وان فقره وفقر عمه (ابي طالب) الذي كفله صغيرا قد حال دون انغماسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات، من السكر والتسري وعزف القيان — الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه —

وانه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات - لامانع من ذلك — وانه استفاد من أسفاره وممن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات الى النور — هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا — وان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع — هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول — وانه كان قد سمع ان الله سيبعث نبياً مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء — وأن هذا علق بنفسه فتعلق رجاؤه بان يكون هو ذلك النبي الذي آن أوانه — وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي مافيه — ونتيجة ماتقدم أنه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه، وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكره، وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود، وسر النظام الساري في كل موجود، بما صار به اهلا لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور، وما زال يفكر ويتأمل، وينفعل ويتململ، ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن انه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشر، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك المعلومات التي ذكرناها، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين مايصح منها وما لايصح، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء، وأنها خطاب الخالق عز وجل بواسطة الناموس الاكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشريعة لقومه فليس بدعا في العقل أن يضع محمد شريعة أيضا، وسأبين فساد هذا الرأي

﴿ تفنيد تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه ﴾

(الوجه الاول) ان اكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوي باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة .

مثال ذلك زعمهم ان محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهورهم على الروم ، ليوهموا الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبان الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك — هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فانه يحدثنا بأن ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الاخيرة الى الشام باربع عشرة سنة وقبل بدء الوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت مختلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو ان تعود لها الكرة والغلب على الفرس . حتى ان أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فربح الرهان . وأما العقل فانه يحكم بان مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بان الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين ـ لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صح أن انتصار الروم حصل سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثماني سنين ولن كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع . والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى ﴿ غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴾ ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلا ـ هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون باسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته الى الشام بارض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به ان يجعلوه أصلا لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما بيناه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يكون ماسمعه في الطريق من أناس مجهولين ومعارفهم لا يوثق بها أصلا للوحي الذي جاء في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئا او عاشرهم لنقل ذلك اتباعه الذين لم يتركوا شيئا علم عنه اوقيل فيه ولو لم يثبت الا ودونوه ووكلوا أمر صحته أوعدمها الى اسناده

(الوجه الثالث) لو وقع ماذكر لاتخذه أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتجون بها على ان مايدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ماهو اضعف واسخف من هذه الشبهة وهو انه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده احيانا يشاهد صنعته فاتهموه بانه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣ و لقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بَشر. لسان الذى يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في انه ﷺ لم يكن يعرف شيئا من اخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ،وهم متفقون معنا على انه ﷺ لم يكن يكذب على احد فضلا عن الكذب على الله عزوجل، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عزوجل ويقينه بكل ماأوحاه اليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين ومابعدها من سورة القصص (٢٨: ٤٤ وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ٤٥ ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (١١: ٤٩ تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) ونحوها في قصة يونس من سورته

(الوجه الخامس) انه لم يرد في الاخبار الصحيحة ولا الضعيفة ان محمداً ﷺ

كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لانهم ماتركوا شيئاً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن امية بن ابي الصلت

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في انه ﷺ خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم تجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلائه وتعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كمل استعداده تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقبَ ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، في بيان أصول الايمان ، وتوحيد الديان ، واجتثاث شجرة الشرك وعبادة الاوثان ، وإنذار رءوس الكفر والطغيان ، ماسيلقون في الدنيا من الخزي والنكال ، وفي الآخرة من عذاب النار ، كسور المفصل ولا سيما [ق والقرآن المجيد] والذاريات والطور والنجم والقمر . ثم الحاقة والنبأ — او في سورة من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل ، كسور الانبياء والحج والمؤمنون ، ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم الى شيء ، ولا تحدث إلى اهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الاصلاح الديني الذي توجهت اليه نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه ، اذ لو تحدث بذلك لنقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته ، وأبي بكر الصديق الذي عاشره طول عمره — فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ماصوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه ، واستمداده لعلومه من التلقي والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد ذلك موافقاً لماجريات الوقائع والحوادث يؤيد ذلك ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر عقب قول الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن — فقد أراده ابوجهل أن يقول فيه قولا يبلغ قومه انه منكر له وانه كاره له ، بعد ان علم انه تحرى استماعه من محمد ﷺ واعجب به . قال له الوليد وماذا اقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر لا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن ، والله مايشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمنير أعلاه، مشرق اسفله(١) وانه ليعلو وما يعلى ، وانه ليحطم ماتحته . قال ابوجهل لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه . فقال دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال :هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت الآيات (٧٤ : ١١ ذرني ومن خلقت وحيداً) الخ رواه الحاكم عن ابن عباس باسناد صحيح على شرط البخاري

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المحللون لمسألة الوحي قليلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن

وان القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل بحيرا ونسطور وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها، دع الاعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصدقا لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل من وحي الله الى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم ـ ونزل أيضا مهيمنا عليها أي رقيبا وحاكما كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (٦) ومما حكم به على أهلها من اليهود والنصارى انهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٤٤:٥ و٥١) ونسوا نصيباً أوحظاً آخر منه وانهم حرفوا وغيروا وبدلوا (١٢:٦ و١٣) وبين كثيراً من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار ، ومثل هذه الاحكام العليا عليهم لايمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان أو غير الرهبان، أفاضوها على محمد في رحلته التجارية الى الشام ، سواء أ كان عند

---

(١) وفي رواية :وان اعلاه لمثمر ،وان اسفله لمغدق.

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي والعيسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا، وسواء أكان لدى بعضهم بقية من الاناجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (ابو كريف) كانجيل طفولة المسيح وانجيل برنابا ام لا ، فمحمد لم يعقد في الشام ولا في مكة مجمعاً مسيحياً كمجامع الكنيسة للترجيح بين الاناجيل والمذاهب المسيحية ويحكم بصحة بعضها دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعو هذه الاخبار ببداهة العقل مع عدم النقل انه محال ، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الاناجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ ؟ وقد صح عنه أنه قال لاصحابه في شأن أهل الكتاب « لاتصدقوهم ولا تكذبوهم » يعني فيما سكت عنه القرآن لئلا يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا ، ويكون ماصدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ماهو مخالف للعهدين العتيق والجديد وهو مما لايعلم الى الآن أن احداً من اليهود والنصارى قال به ، كمخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته — وفيما قرره من عزو صنع العجل الذي عبده بنو اسرائيل الى هارون عليه السلام بعزوه إياه الى السامري واثباته لانكار هارون عليهم فيه وغير ذلك ،

بل ماجاء به محمد أكبر وأعظم من كل مافي الكتب الالهية ماصح منها ومالم يصح كما سنبينه

رويدكم أيها المفتاتون ، الذين يقولون مالا يعلمون ، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون ، وأكبر مما تتصورون وتصورون، وان محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون ، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسله لانه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة ، فأجدر به أن يكون أكمل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به احد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع بعد الشبه بين أمي نشأ بين الاميين، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة

وسياسة ، ودخل في كل أمور الامة والدولة (١)

القول الحق في استعداد محمد ﴿ص﴾ للنبوة

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته، هو أنه خلقه كامل الفطرة ، ليبعثه بدين الفطرة ، وانه خلقه كامل العقل الاستعدادي الهيولاني، ليبعثه بدين العقل والنظر العلمي، وانه كمله بمعالي الاخلاق ، ليبعثه متمما لمكارم الاخلاق ، وانه بغض اليه الوثنية وخرافات اهلها ورذائلهم من صغر سنه، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات واللذات البدنية ، او منكرات الوحشية ، كسفك الدماء والبغي على الناس ، او المطامع الدنيئة كأكل أموال الناس بالباطل - ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الاعلى، لتنفيذ مايوحيه اليه من الشرع الاعلى ، فكان من عفته أن سلخ من سني شبابه خمساً وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في ١٥ منها عجوزا يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين. وهي أحب الناس اليه، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت صاحبه الصديق على جمالها وحداثتها وذكائها وكمال استعدادها للتبليغ عنه — وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق فكان على شجاعته

---

١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح ووالدته من انسباء بستراتوس آخر ملوك اثينا ،وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الاعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش .وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م «ارخونا» اي رئيسا على الامة باجماع احزابها كلهم وقلدوه سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه «زراكوت» من قبله فوضع لهم نظاما جديدا قررت الحكومة والامة اتخاذه دستورا متبعا مدة عشر سنين. فسولون كان في قانونه منقحا ومجددا لقانون اعظم امة من امم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلما وفيلسوفا وحاكما وقائدا ورئيسا، أفيقاس عليه محمد ﴿ص﴾ الامي الذي لم يقرأ سطرا ولم ير كتابا، ولا تولى عملا اداريا ولا سياسيا، ثم إن ما جاء به لم يكن قانونا موضعيا منقحا لقوانين أخرى قبله ، بل كان اصلاحا لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وحروبهم الخ ؟ تأمل ايها القارىء الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم !!

الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم لاجل صدهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطنا نفسه على قتله ﷺ فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع فلم يجد ﷺ بدآ من قتله فطعنه في ترقوته من خلال الدرع والمغفر ، وظل طول عمره وبعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشظف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه لا كل الطيبات ونهيه لمن كان يتركها تدينا ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد ، وكان يأكل ما وجد لا يعيب طعاما قط ، الا أنه كان لا يشرب إلا الماء العذب النقي

وأكمل الله تعالى استعداده الذاتي «لا الكسبي» للبعثة باكمال دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لاصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين ، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الاميين ومن أهل الكتاب، حتى انه لم يجعل له أدنى عناية بما يتفاخر به قومه من فصاحة اللسان ، وقوة البيان، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومنافرة ، إذ كانون يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لاظهار بلاغتهم وبراعتهم ، فكان ذلك أعظم الاسباب لارتقاء لغتهم ، ولوجود الحكمة في شعرهم ، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال «ان كاد ليسلم» وقال « آمن شعره وكفر قلبه» وقال « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر حكما » رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس ، وأما قوله « ان من البيان لسحرا » فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل لساني ولا نفسي ، ولم يرو عنه انه كان يرجوها كما روي عن أمية ابن أبي الصلت ، بل روي عن خديجة (رض) انها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قاله بحيرا الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتحدثون عنه ، ولكن هذه الروايات لايصل شيء منها الى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفا ، فان قيل انه يقويه حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبدا، قلنا انها عللت ذلك بما ذكرته من فضائله، ورأت انها في حاجة الى استفتاء ابن عمها امية في شأنه .

واما اختلاؤه ﷺ وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في انه كان عملا كسبيا مقويا لذلك الاستعداد الفطري، ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولاعاداتهم ، ولكنه لم يكن بقصد الاستعداد للنبوة، لانه لو كان لاجلها لاعتقد حين رأى الملك او عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه، وانما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها الى الانس بالله تعالى ، والرجاء في هدايته الى المخرج منها، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الضحى (ووجدك ضالا فهدى) ومايفسره من قوله عزوجل في سورة الشورى (٤٢: ٥١ وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ما كنت تدري ماالكتاب ولاالايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدي الى صراط مستقيم * ٥٢ صراط الله الذي له مافي السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وألم به في رسالة التوحيد الماما مختصراً مفيداً ، فقال رحمه الله تعالى :

«من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته، وأهل عصبته ،ولا كتاب يرشده ،ولا أستاذ ينبهه،ولا عضد إذا عزم يؤيده، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال،فيرجع الى مخالفتهم،اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١) ولكن الامر لم يجر على سنته، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ،فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره

(١) كامية بن أبي الصلت وعمرو بن نفيل

حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالا فهدى) لايفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك لهو الافك المبين ، وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ماهدوا اليه من انقاذ الهالكين، وارشاد للضالين ،وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته» اه

(أقول) وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوة والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمة كمرآة صقيلة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية ، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة، الى ان تجلى فيها الوحي الالهي باكمل معانيه ، وابلغ مبانيه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى اقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دائمة لايحتاجون بعدها الى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى — هو مضرب المثل في قوله تعالى في سورة النور (٢٤ : ٣٥ الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لاشرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ،نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

فزيت مصباح المعارف المحمدية، يوقد من زيتونة لاشرقية ولا غربية، ولا يهودية ، ولا نصرانية ، بل هي الهية علوية

هذا ما نراه كافيا لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده، ويتلوه ماهو أقوى دليلا ، واقوم قيلا ، وهو تفنيده بموضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، وهو القرآن العظيم

آية الله الكبرى ـ القرآن العظيم

﴿ القرآن الكريم ، القرآن الحكيم ، القرآن المجيد ، الكتاب العزيز ﴾

الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالآيات ، هو معجزة لا كالمعجزات ، هو نور لا كالانوار ، هو سر لا كالاسرار ، هو كلام لا كالكلام ، هو كلام الله الحي القيوم الذي ليس لروح القدس جبريل الأمين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الافق الأعلى إلى هذه الارض ، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه الا تبليغه للناس ليهتدوا به ، فهو معجز للخلق بلفظه ونظامه وأسلوبه وعلومه وهدايته ، لم يكن في إستطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ومعارفه ، وفصاحته وبلاغته ، وهو (ص) لم يكن عالما ولا بليغا ممتازا الا به ، بل فيه آيات صريحة في معاتبته على بعض اجتهاده كفداء اسرى بدر (راجع ص ٨٣ و٩٤ و٤٦٤ و٤٧٣ ج ١٠ تفسير)

قد بينت في تفسير آية التحدي بالقرآن من سورة البقرة (٢ : ٢٣) أهم وجوه الاعجاز اللفظي والمعنوي بالاجمال والايجاز ، وأعود هنا الى الكلام في علوم القرآن المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أعلى من كل ماحفظه التاريخ عن جميع الانبياء والحكماء ، وواضعي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والامم

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عليما حكيما رحيما مريدا فاعلا مختارا فلا مندوحة له ولا مناص من الايمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم انبيائه المرسلين رحمة بهم ليهتدوا به إلى تكميل فطرتهم ، وتزكية أنفسهم ، وإصلاح مجتمعهم من المفاسد التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضا إلهياً لازباً عاما كما قال تعالى (٧ : ١٥٨ قل ياءيها الناس اني رسول الله اليكم

جميعا الذي له ملك السموات والارض لا إله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العليم الحكيم فلا مندوحة له عن الجزم بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء الهادين المهديين ، ويكون الواجب بمقتضى العقل ان يعترف له هؤلاء بأنه سيد البشر على الاطلاق وأولاهم بالاتباع بعنوان (سيد البشر وحكيمهم الاعظم)

واننا رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون القرآن في الجملة يعترفون بهذا قولا وكتابة (منهم) الاستاذ مولر الانكليزي المشهور ، ومنهم ذلك الفيلسوف الطبيب السوري الكاثوليكي النشأة الذي رأى في مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب الينا كتابا يقول في اوله :أنت تنظر الى محمد كنبي فتراه عظيما ، وأنا أنظر اليه كرجل فأعده اعظم. وذكر ابياتا في وصفه ووصف القرآن وما فيه من محكم الآيات ، المانعة لمن عقلهـا من تقييد العمران بالعادات ، وإصلاحه للبشر بحكمة بيانه وقوة بنانه ، وختمها بقوله :

ببيانه أربى على أهل النهى وبسيفه أنحى على الهامات
من دونه الابطال في كل الورى من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، ولكن الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قليلون ، وان محمداً ﷺ لحجـة عليهم في نشأته وتربيته وما علم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع ، ثم بما جاء به في سن الكهولة من هذه العلوم المصلحة لجميع شؤون البشر في كل زمان إذا عقلوها واهتدوا بها ، وإسناده إياها الى الوحي الالهي ، فهو ﷺ بمزاياه هذه حجة وبرهان على وجود الرب الخالق الحكيم بل مجموعة حجج عقلية وطبيعية ـ وهاك أيها القارىء ماأزفه اليك من قواعد تلك العلوم الاصلاحية بعد تمهيد وجيز في أسلوب القرآن وحكمة جمل تلك العلوم الكلية متفرقة في سوره بأسلوبه الغريب العجيب، وهذا المعنى قد بيناه من قبل وإنما نعيده مع زيادة مفيدة وإيضاح اقتداء بأسلوب القرآن نفسه في تكرار المعنى الواحد في المواقع المقتضية له من ايجاز أو إسهاب، وتفصيل او إجمال

(أسلوب القرآن الخاص وحكمته واعجازه به)

لو أن عقائد الاسلام المنزلة في القرآن من الايمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودار الثواب ودار العقاب جمعت وحدها مرتبة في ثلاث سور أو اربع اوخمس مثلا ككتب العقائد المدونة — ولو ان عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والدعاء والاذكار وضع كل منها في بضع سور أيضا ككتب الفقه المصنفة ـ ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمندوبة، وما يقابلها من الرذائل والاعمال المحرمة والمكروهة، أفردت هي وما يقتضيه الترغيب والترهيب من المواعظ والنذر والامثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء في بضع سور أخرى ككتب الاخلاق والآداب المؤلفة ـ ولو ان قواعده التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحربية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتبت في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية ـ ثم لو ان قصص النبيين المرسلين ومافيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ ـ لو أن كل ماذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها اصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي الذي لا يعلم احد مرتبه أو كتب العلم والفقه والقوانين لفقد القرآن بذلك اعظم مزايا هدايته المقصودة بالقصد الاول للغاية التي انتهت اليها، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للقليل من سوره كثيرا من مسائل الايمان والفضائل والاحكام والحكم المنبثة في جميع السور لان السورة الواحدة لا يوجد فيها في هذا الترتيب إلا مقصد واحد من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق أو الحيض فهو يتعبد بها ولا شك انه يملها، وأما سوره المنزلة ففي كل منها حتى أقصرها عدة مسائل من الهداية فترى في سورتي الفيل وقريش (المتعلقة احداها بالاخرى حتى في الاعراب) ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلتا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الذي هو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم وتأمين تجارتهم وحياتهم — ولفقد بهذا الترتيب أخص أنواع إعجازه ايضا

يعلم هذا وذاك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين، العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور الكثيرة ، الطويلة منها والقصيرة ، بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور ، النافية للسآمة والملل من المواظبة على ترتيلها بنغمات نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني الذي يحدث في القلب وجدان الخشوع ، وخشية الاجلال للرب المعبود ، والرجاء في رضوانه ورحمته ، والخوف من عقوبته ، والاعتبار بسننه في خلقه ، بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر ولا رجز ولا سجع ، فبهذا الاسلوب الرفيع في النظم البديع ، وبلاغة التعبير السنيع ، كان كما ورد في وصفه : لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة الترديد. وحكمة ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل وهاك بيانه بالاجمال

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في البشر

القرآن كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل صقيل النفس طاهر الاخلاق لم تملكه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية، لأجل إحداث ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الامم يكتسح من العالم الانساني ما دنس فطرته من رجس الشرك والوثنية الذي هبط بهذا الانسان من أفقه الاعلى في عالم الارض إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات ، وما أفسد عقله وذهب باستقلال فكره من البدع الكنسية ، والتقاليد المذهبية ، التي أحالت توحيد الانبياء الاولين شركا وحقهم باطلا ، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه ، وأذل نفسه، وسلبه ارادته، من استبداد الملوك الظالمين ، والرؤساء القاهرين ، ثورة تحرر العقل البشري والارادة الانسانية من رق المنتحلين لانفسهم صفة الربوبية أو النيابة عنها في التحكم في الناس واستذلالهم ، فيكون كل امرىء اهتدى به حرا كريماً في نفسه ، عبداً خالصا لربه وإلهه ، يوجه قواه العقلية والبدنية الى تكميل نفسه وجنسه

مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث الا على قاعدة القرآن في قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وكيف يكون تغيير الاقوام

لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات ، التى طبعتها عليها العبادات الموروثة والعادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتابا تعليمياً جافا ككتب الفنون يقول فيه انكم أيها الناس ضالون فاسدون ، ومضلون مفسدون ، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتصلحوا ، أو قانونا مدنيا يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم ، وتعتز أمتكم وتقو دولتكم ؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبيائهم المرسلين، وإهمال قوانين حكمائهم المصلحين، (كما فعل المسلمون المتأخرون) وإنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد فعل هذا في الامة العربية وقد بعث بالحجة والبرهان، فريداً وحيداً لاعصبة له من قومه ولا سلطان؟ على انه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها امته قوانينها عند تكوين دولتها في الاحوال الملائمة لها كما يعلم مما يأتي

كلا ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به وهو تأثير هذا القرآن في الامة العربية التي كانت أشد الامم البدوية والمدنية استعدادا فطريا لظهور الاسلام فيها بالاقناع كما بيناه بالتفصيل في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية)وسنلم به قريبا

ذلك بأن من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعادات ، ان مجرد البيان والاعلام والامر والنهي لايكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر اذا عارض المقتضي العلمي لهما ما أشرنا اليه آنفا من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد من الناس دون الجماعات والاقوام . بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس وصدور آثارهما عنهما بالعمل ، أنه يتوقف على صيرورة الايمان بهما اذعانا وجدانياً حاكما على القلب، راجحا على ما يخالفه من رغب ورهب وألم وأمل، وانما يكون هذا في الاحداث بالتربية العلمية العملية والاسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤن بينهم من الوالدين والاقربين والمعاشرين

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الايمان بالحق المطلق والخير العام اذعانا

وجدانيا لجمهورهم إلا بالاسلوب الذي نزل به القرآن فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وحولها إلى ضدها علما وعملا بما لم يعهد له نظير في البشر ، فكان القرآن آية خارقة للمعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره ، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه

واعتبر هذا ببني اسرائيل سلالة النبيين ، فان كل ما رأوه بمصر من آيات موسى عليه السلام، ثم ما رأوه في برية سينا مدة التيه منها، ومن عناية الله تعالى بهم ، ومن سماعهم كلام الله تعالى بآذانهم في لهيب النار المشتعلة على ما ترويه توراتهم-ولم يثبت عندنا التكليم الا لنبيهم - لم يتغير به ما كان بانفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها ومهانتها واخلاقها، فقد عذبوا موسى عذابا نكرا، وعاندوه في كل ما كان يأمرهم به ،وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته لربه، حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة ، وهو كناية عن البلادة والعناد ، وعصل الطباع المانع من الانقياد ، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر وممن ولد في التيه أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة ، وأن يعملوا بها ، ويجاهدوا في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين ربوا بسماع القرآن وترتيله وتدبره في رسوخهم في الايمان، وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم، ثم في مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ،ومجاهدة اعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه ، وكان ذهب نصفها في الدعوة وتبليغ الدين للافراد بمكة ، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم انفسهم كالسيل الأتي على الاقطار من نواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض وإزالة الشرك والظلم منهما ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيهما ،ودخول الامم في دين الله

أفواجا مختارين اهتداء بهم ، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين ، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن ، أو ثلاثة أرباعها في ثلاثة أرباعه و كانوا مضرب المثل في الرحمة والعدل وموضع الحيرة لعلماء الاجتماع وقواد الحرب

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصاب الرقبة رتبة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الآيات ، فكان عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين الذي طبع وشب على الشدة والقسوة يطبخ الطعام هو وزوجه ليلا لامرأة فقيرة تلد وبعلها حاضر لا يساعدهما اذ لم يكن يعلم انه امير المؤمنين.

لاجرم أن سبب هذا كله تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٢٥ : ٥٢ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكيهم ، وبهدايته والتأسي بمبلغه ﷺ ربوا الامم وهذبوها ، وقلما يقرؤه احد كما كانوا يقرءون ، إلا ويهتدي به كما كانوا يهتدون ، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي. واختلاف الزمان لا يخفى. ولو كان القرآن باسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غير ما بأنفس العرب فغيروا به أمم العجم، فكانوا كلهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

ولم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن، والاسوة الحسنة بمبلغه ومنفذه الاول عليه الصلاة والسلام، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزهم الا اذا عادوا الى هدايته ، وتجديد ثورته ، ولعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبينه، بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحيي الايمان وينهض الهمم ، ويزكي الانفس ويبعث على العمل

(فعل القرآن في أنفس العرب المستعدة له نوعان)

بيان ذلك ان فعل القرآن في أنفس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم قد كان على نوعين أولهما جذبه الناس الى الاسلام، وثانيهما تزكيتهم وتغيير كل ما كان بانفسهم من جهل وفساد الى ضده ، حتى اعقب ما أعقب من الاصلاح في العالم كله . وهاك التفصيل الذي يحتمله المقام لذلك

بينا مرارا ان الله تعالى قد أعد الامة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما أراده من الاصلاح العام للبشر بكونهم كانوا اقرب الامم الى سلامة الفطرة، وأرقاهم لغة وأقواهم استقلالا في العقل والارادة، لعدم وجود ملوك مستبدين ورؤساء دين أولي سلطان روحي يتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ويسخرونهم لشهواتهم

فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي الى الحق والى صراط مستقيم كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم في التمتع بالثروة الواسعة والعظمة الكاذبة والشهوات الفاتنة والسرف في الترف ، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المكانة الدينية بسدانتهم لبيت الله الحرام الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل -فرأوا ان هذا الدين يسلبهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والموالي ، وانه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آبائهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الانعام — فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتمليكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب ، حتى التمويل والتمليك ، فقد أجاب عمه ابا طالب لما عرض عليه ما أرادوه من ذلك بتلك الكلمة العليا « ياعم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته » حينئذ أجمعوا أمرهم على صده عن تبليغها بالقوة ، والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الاسواق والمجامع والبيت الحرام ، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له ، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية ، الا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة او

جوار او ذمة ، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون كانوا أعلم الناس بصدق محمد وفيهم نزل قوله تعالى (فانهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فقد كابروا الحق بغيا واستكبارا للحرص على رياستهم وشهواتهم ، وكانوا اجدر العرب بقبول دعوة القرآن (وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلواً) كفرعون وقارون وهامان

فعل القرآن في مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين : فعله في المشركين ، وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه ، الجاذب لفهم دعوته والايمان به، اذ لايخفى حسنها على أحد فهمها، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية

فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لابي جهل التي اعترف فيها بانه الحق الذي يعلو ولا يعلى ، والذي يحطم ما تحته ، (راجع ص١٨٩) وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله ووجدانه، وبعد أن فكر وقدر، ونظر وعبس وبسر، وأدبر واستكبر ، كما يعلم من سورة المدثر وسبب نزول قوله تعالى (ذرني ومن خلقت وحيدا) الآيات منها

وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه، وتواصيهم وتقاسمهم لايسمعن له ، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ، ويتلاقون في الطريق متلاومين،

وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلا لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام ، وعللوا ذلك بانه يفتن عليهم نساءهم وأولادهم ، فاتخذ مسجداً له بفناء داره فطفق النساء والاولاد الناشئون ينسلون إلى بيته ليلا لاستماع القرآن، فنهاه أشراف المشركين بان العلة لا تزال، وانهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الاسلام ، وكانوا ألجأوه إلى الهجرة فهاجر فلقي في طريقه ابن الدغنة سيد قومه

فسأله سبب هجرته فأخبره الخبر وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الاسلام فاجاره وأعاده إلى مكة بجواره ، فعاد إلى قراءته ، وعاد النساء والنشء الحديث إلى الاستماع له ، حتى اضطر المشركون ابن الدغنة إلى اقناعه بترك رفع صوته بالقرآن أو يرد عليه جواره ، فرد أبو بكر جواره اكتفاء بجوار الله تعالى ، وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة وأوردناه بطوله في تفسير آية الغار (ص ٤٣٦ من الجزء العاشر)

بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي (ص) بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه ، وعلى تواصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)

وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً لم يأت بآية على نبوته كآيات موسى وعيسى وقال في الرد عليهم : ان محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أواها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الايمان مالم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الفنون المبوبة ، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة

كان كل مايطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس . قال تعالى مخاطباً له (٦ : ١٩ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ) أي وأنذر به كل من يبلغه من غيركم من الناس . وقال في آخر سورة النحل (٢٧ : ٩١ إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرمها وله كل شيء وامرت أن أكون من المسلمين (٩٢) وأن أتلو القرآن : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين (٩٣) وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون)

ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس الى الاسلام بوقعه في أنفسهم مالم يعرفه غيرهم ، وعرفوا أنه ليس لجمهور العرب مثل مالهم من أسباب الجحود والمكابرة ، فقال لهم عمه أبو لهب من أول الامر : خذوا على يديه ، قبل أن تجتمع العرب عليه » ففعلوا . وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الاذى ماأفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولمن يؤمن به ، ثم اجماع الرأي على قتله ، حتى

ألجؤهم إلى الهجرة بعد الهجرة. ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها، وينصره الله عليهم، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة. وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين الذي كان سبب سماعهم للقرآن، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجا، فكان انتشار الاسلام في أربع سنين بالسلم والامان، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الاسلام

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الاسلام قبل الهجرة يلقن ما نزل من القرآن - ليعبد الله بتلاوته - ويعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الاسلام غيرها، فيرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التهجد بالليل من أول الاسلام قال تعالى في أول سورة المزمل - التي قيل إنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وبعدها المدثر وقيل بالعكس - وتقدم الجمع بين الاقوال (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا *) ثم قال في آخرها (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك. والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرؤا ما تيسر من القرآن) أي في صلاة الليل وغيرها، ثم ذكر الاعذار المانعة من قيام الليل كله ما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله

ومما ورد في صفة الصحابة (رض) أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن، وقد غلا بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا منهم نساؤهم فنهاهم النبي (ص) عن ذلك، وكان هو يصلي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة يوتر بواحدة منهن، وما قبلها مثنى مثنى، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماه من طول القيام فأنزل الله عليه مرفها ومسلياً (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكتها تلك التزكية التي أشرنا اليها آنفا وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان احدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها، وكانوا يقرؤنه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم)، وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه ، ولو كان القرآن ككتب القوانين والفنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع، وتغيير الاوضاع ، بل لكانت تلاوته تمل فتترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع اعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منه وليحاول كتابتها نفسها أومثلها بأسلوب تلك السورة ونظمها أو أسلوب سورة أخرى، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وببعض التفصيل تارة وبالاطناب فيه أخرى ، كالاعتبار بقصص الرسل مع أقوامهم في سور المفصل(كالذاريات والقمر والحاقة) وفيما فوقها(كالمؤمنون والشعراء والنمل) وفيماهو أطول منها (كالاعراف وهود) ـ ثم لينظر مايفضي اليه عجزه من السخرية

وقد بين بعض علماء الاجتماع في هذا العصر ان تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية هي التي تثير الجماعات وتدعهم إلى الانهماك والتفاني فيها دعًا ، وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام فوق مايعلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار ، وانما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار، الا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار، وتحويل مافي الانفس من العقائد والاخلاق إلى خيرمنها ، وهوما لا يتكمن احداث الانقلاب الاصلاحي بدونه كما تعلم من التفصيل الآتي

مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الانسان، ومافيه من التكرار

ان مقاصد القرآن من اصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وادخالهم في طور الرشد وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدتهم وترقية عقولهم وتزكية أنفسهم منها مايكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أومرتين أومرارا قليلة ، ومنها مالا تحصل

الغاية منه إلا بتكراره مرارا كثيرة لاجل أن يجتث من أعماق الانفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويغرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله ويينع ثمره ، ومنها مايجب أن يبدأ بها كاملة ، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج ، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكناية

والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب الفنون والقوانين ،وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) واننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ماجاء به محمد (ص) هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكماء والحكام فهو برهان على أنه من عند الله تعالى لامن فيض استعداده الشخصي ، وإننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ونبين حكمة القرآن ، وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال لان التفصيل لايتم الا إذا يسر الله لنا ماوعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كلها في أبواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد وكون القرآن وفى بهذه الحاجة بما نأتي به من جملة آياته فيه

﴿ النوع الاول من مقاصده الاصلاح الديني لاركان الدين الثلاثة ﴾

ان أركان الدين الاساسية التي بعث بها جميع رسل الله تعالى وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة المبينة بقوله (٢:٦٢ ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهاك الكلام على كل منها بالايجاز

﴿ الركن الاول للدين الايمان بالله تعالى ﴾

فالركن الاول الاعظم من هذه الاركان ـ وهو الايمان بالله تعالى ـ قد ضل فيه جميع الاقوام والامم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل، فاليهود جعلوا الله كالانسان يتعب ويندم على مافعل كخلقه للانسان لانه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله « او مثل الآلهة » وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى إنه صارع اسرائيل ولم يقدر على التفلت منه حتى باركه فأطلقه! وعبدوا بعلا وغيره من الاصنام. والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، فغمر الشرك بالله هذه الارض بطوفانه ، وطغت الوثنية على أهلها، حتى صارت كنائس النصارى كهيا كل الوثنية الاولى مملوءة بالصور والتماثيل المعبودة ـ على أن عقيدة التثليث والصلب والفداء هي عقيدة الهنود في كرشنة وثالوثه في جملتها وتفصيلها ، وهي مدعومة بفلسفة خيالية غير معقولة وبنظام يقوم بتنفيذه الملوك والقياصرة، ويبذل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهانا ، فهدم معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ما كان ليتم باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل، بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والخطابية بالعبارات المختلفة وضرب الامثال، لذلك كان أكثر المسائل تكرارا في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم ملكا وعبيداً له لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضرا لأحد ولا لانفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق كما شرحناه مرارا .

وأما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني فليس سببه كثرة المشركين بربوبيته تعالى ، بل سببه إقامة الحجة به على بطلان شرك العبادة بدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب اليه بأولئك الاولياء وابتغاء شفاعتهم عنده، فشر الشرك وأعرقه في الكفر وأكثره في ضعفاء العقول انما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة،

بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ومخها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي

بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى ، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقا ، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على اثبات التوحيد ، ومنها أمثال تصور كلا منهما بالصور اللائقة المؤثرة ، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وان كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبد له ، وان أفضلهم وخيارهم كالملائكة والانبياء يدعونه هو ويبتغون الوسيلة اليه ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وانهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله ـ وأمثال ذلك مما يطول تلخيصه

وثم انواع أخرى من آيات الايمان بالله تعالى تغذي التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفته تعالى والتأله والتوله في حبه من التنزيه والتقديس والتسبيح ، وذكر أسمائه الحسنى ممزوجة ببيان الاحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والارث والاموال ، وبحكم الخلق والتدبير لامور العالم ، وسننه في طباع البشر وفي شؤونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة وعلم وحكمة وقدرة ومشيئة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الامر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله الخ وناهيك بما سردمنها سرداً لجذب الارواح العالية إلى كماله المطلق وفنائها فيه كما تراه في خاتمة سورة الحشر فتأملها ، وفي فاتحة سورة الحديد (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم * هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ومنها استمد الاولياء العارفون والائمة الربانيون تلك الكتب العالية في معرفته تعالى وأسرار خلقه ، بعد ان تربوا بكثرة ذكره ، وتلاوة كتابه

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالاخلاق العالية والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب في الامة دبيب الجهل بلغة القرآن وقل

تدبره واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ضعف التوحيد واتبعوا سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعا بذراع اعتقاداً وعملا ، وتأولا وجدلا ، فصار أدعياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة على التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم كما هو مشاهد ومعلوم

على أن بعض المتكلمين والصوفية قد بالغوا في التوحيد حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسبباتها ، وقال بعضهم بوحدة الوجود ، وانتهى بهم ذلك الى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء ، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم اليه النظر العقلي ، أو رياضة النفس وما تثمره من الشعور الوجداني ، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لاحظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان ، وإنما يتبعون العوام ويتأولون لهم بكلام امثالهم من المصنفين الجاهلين . ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب — وهي سورة الاخلاص — لما وجد الشرك الى أنفسهم سبيلا

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم ، وأعلى هممهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل ، ومكنهم من فتح البلاد وسياسة الامم ، واعتاقها من رق الكهنة والاحبار والرهبان والبوذات والموبذانات الروحي والعقلي ، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم ، وإقامة دعائم الحضارة ، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم ، وقد تم لهم من كل ذلك مالم يقع مثله ولا مايقاربه لأمة من امم الارض ، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير : ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال ، أولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة ، وثالثها جيل الاستقلال والاجتهاد — قال : إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذى بدؤا فيه بزاولتها .

وأقول ان سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد ، وتوطين انفسهم على إمامة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معا ، وقد خفي كل هذا على سلائلهم بعد ذهاب الخلافة الاسلامية وزوال النهضة العربية

وتحول السلطان الى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام الا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

﴿ الركن الثاني من اركان الدين عقيدة البعث والجزاء ﴾

وأما الركن الثاني وهو الايمان باليوم الآخر ومايكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال، فقد كان جل مشركي العرب ينكرونه اشد الانكار، ولا يكمل الايمان بالله تعالى ويكون باعثاً للامة على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان بدونه ، وكان أهل الكتاب وغيرهم من الملل التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرفت واستحوذت عليهم الوثنية يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء على الاعمال ، ولكن ايمانهم هذا قد شابه الفساد ببنائه على بدع ذهبت بجل فائدته في إصلاح الناس، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين وخلف النصارى وجود المخلص الفادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه ، وهو الاقنوم الثاني من الثالوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث ، وكل واحد منهما عين الآخر . وكل مايقوله النصارى في فداء المسيح للبشر وغير ذلك فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنة في اللفظ والفحوى كما تقدم ، لا يختلفان إلا في الاسمين كرشنة ويسوع .

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل ومحاباة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمونه إله اسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين ، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية ، فكان فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفته ومحتاجا إلى الاصلاح مثله

جاء القرآن للبشر بهذا الاصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشقائه منوطين بايمانه

وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه لا من عمل غيره ، وان الجزاء على الكفر والمعاصي يكون بعدل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب، والجزاء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بعشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضعافا كثيرة

ومدار كل ذلك قاعدة قوله تعالى (ونفس وماسواها * فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والغريزة مستعدة للفجور الذي يرديها ويدسيها ، والتقوى التي تنجيها وتعليها ، ومتمكنة من كل منهما بارادتها ، والترجيح بين خواطرها ومطالبها، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر، فبقدر طهارة النفس وأثر تزكيتها بالايمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة، والضد بالضد : فالجزاء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني الذي يزكي النفس او يدسيها ويدنسها ، وهذا هو الحق الذي يثبته من عرف حقيقة الانسان ، وحكمة الديان ، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الاديان

فاذا علمت ما كان من انكار مشركي العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد إيمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكملة للايمان بالله تعالى، وان تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر ـ علمت أن ذلك ما كان ليفعل فعله العاجل في شعب كبير الا بتكراره في القرآن بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ،وتقريب البعيد من الاذهان ، تارة بالحجة والبرهان ،وتارة بضرب الامثال، وقد تكرر في آيات بينات ، لعلها تبلغ المئات،ومن اعجازه انها لاتمل ولا تسأم

الايمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الاديان، من لوازم الركن الأول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العبث في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً

وأنكم إلينا لا ترجعون) وقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فكفر الانسان بهـذا الركن من أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم ، وتفضيله على أهل عالمه (الارض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه ، وعلى كثير ممن خلق في عالم الغيب الذى وعده بمصيره اليه ، وجهـله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلق لحياة لا حد لها ولا نهاية ، ــ ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله ، احتقاره لنفسه باعتقاده انه خلق عبثا لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الارض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنغص بالهموم والمصائب والظلم والبغي والآثام ، وانه يترك سدى لا يجزى كل ظالم من افراده بظلمه ، وكل عادل بعدله وفضله ، واذ كان هـذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الافراد ، تعين ان يكون جزاء الآخرة هو المظهر الاكبر للعدل العام

ومما جاء في القرآن مخالفاً لمـا عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء ان الانسان في الحياة الآخرة يكون انسانا كما كان في الدنيا إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والارواح العالية يكونون أكمل أرواحا وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا ، وأصحاب الانفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون انقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا ، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الأقدمين أن الاديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحيـة واللذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله (جمع حكمة) وأسرار صنعه فيهما معاً ، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من اصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسـدية

وتسميتها بالحيوانية مع شغف أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصاً في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى يصرفه اشتغاله بها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان.
وأصل هذا الافراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد وتربية النفس بالرياضة وتعذيب الجسد وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصلب والفداء والتثليث على انهم نقلوا ان المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم : أني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدا في ملكوت أبي.(متى٢٦:٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك. وجاء الاسلام بالاعتدال فاعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا في انسانيته .

وقد بينا كل ما يتعلق بهذه المسألة من جميع اطرافها العلمية والدينية وكشف شبهاتها في تفسير سورة الانعام التي هي اجمع سور القرآن لمسائل الايمان بالله وتوحيده والبعث والرسالة ودحض شبهات المشركين عليها (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ تفسير)

ويؤخذ مما ورد من الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة ، والتخاطب بالكلام بين اهل الجنة وأهل النار — وان ترقي البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان بعد أن كان الماديون الملحدون يعدون مثل قوله تعالى(٧ : ٤٤ ونادى أصحاب الجنة اصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم : ان لعنة الله على الظالمين)من تخيلات محمد صلوات الله وسلامه عليه - وها نحن أولاء نخاطب من مصر اهل عواصم اوربة بآلة التلفون ، ونسمع خطبهم ومعازفهم بآلة الراديو ، وسنراهم ويروننا بآلة التليفزيون مع التخاطب حينما يعم انتشارها

وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد قرروا ان الارواح البشرية قادرة على التشكل في أجساد تأخذها من مادة الكون كما يقول الصوفية. وهذه مسألة اومسائل قد شرحناها من قبل في هذا التفسير وانما نذكرها هنا بالاجمال رداً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ وإلهاماته الروحية

ويناسب هذا ماجاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء ولم يوجد له اصل عند اهل الكتاب ولا غيرهم ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذكائه او نظرياته العقلية. وجملته ان قارعة ـ والظاهر انها كوكب ـ تقرع الارض وتصخها صخا وترجها رجا فتكون هباء (غباراً رقيقا) منبثا في الفضاء . وحينئذ يختل مايسمى في عرف العلماء بالجاذبية العامة فتتناثر الكواكب الخ وهذا المعنى لم يكن يخطر ببال احد من علماء الكون ولا من علماء الدين فلا يمكن أن يقال ان محمداً ﷺ سمعه من احد في بلده او في سفره ، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه

﴿ الركن الثالث للدين العمل الصالح ﴾

وأما الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصالح فهو مكرر في القرآن في سور كثيرة لاصلاح ماأفسده البشر فيه بجعله تقليديا غير مزك للنفس ولا مصلح لشؤون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الاصل الذي يتبعه غيره، ولولا الحاجة الى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر كافية في الاصلاح العلمي العملي على قصرها ، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي ، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات ايجاز القرآن وهدايته

ثم ان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى لأن من عرف الله عرف استحقاقه الحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفا من العقاب ورجاء في الثواب

ويدخل في الاعمال الصالحة العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم واكرام اليتامى والمساكين. ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء

(١٧ : ٢٣ وقضى ربك ـ الى قوله ـ ٣٩ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) الخ وهي اجمع واعظم من الوصايا العشر التي في التوراة. وآيات سورة الانعام (٦ : ١٥١ قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم) الخ ـ وغير ذلك مما ينفع الناس من الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالابدان والاموال والاعراض والعقول والاديان ، ومثارها الاكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان. ويضادهما ملكة التقوى فهي اسم جامع لما يقي النفس من كل مايدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا او الآخرة، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها، وقد فصلناهذا في (ص ٦٤٨ ج ٩ تفسير) ولا حاجة الى التطويل بالشواهد على ما في القرآن منها

وسنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة بيان أصولها ومجامعها وتكرار التذكير بها بالاجمال ، وأكثر مايحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى ، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى ، كرر الامر بهما في آيات كثيرة وبين أهم منافعهما بقوله (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله اكبر) وقوله (ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات وقوله (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)

ولم يكرر ما يحفظ بالعمل والاقتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها إلا لما لذكره فائدة خاصة . وذكرت فيه احكام الصيام في موضع واحد ،ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه .لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للايمان

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

واذكر فضيلتين من فضائله يزعم النصارى أن ماهو مأثور عندهم فيها أكمل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام : أحبوا اعداءكم باركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى من أساء اليكم . ومن ضربك على خدك الايمن

فأدر له الايسر » ومن المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الاوامر يتعذر على غير الاذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفاسد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وانك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين

أمثال هذه الاوامر لاتأتي في دين الفطرة العام لان امتثالها من غير المستطاع، والله تعالى يقول (لايكلف الله نفساً إلا وسعها) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة .قال تعالى(٤٢. ٤٠ وجزاء سيئة سيئة مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين (٤١) ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل (٤٢) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٣) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور) ولايخفى ان العفو والمغفرة للمسيء انما تكون من القادر على الانتصار لنفسه، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون سببا لاستبدال المودة بالعداوة ، في مكان الاغراء بالتعدي ودوام الظلم ، ولذلك قال (٤١: ٢٤ ولا تستوي الحسنة ولا السيئة .ادفع بالتي هي أحسن فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٢٥) ومايلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلاذو حظ عظيم) فانظر كيف بين مراتب الكمال ودرجاته من العدل والفضل،وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل ، أفليس هذا الاصلاح الاعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليلا على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين ؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين ، ولا يجحده إلا من سفه نفسه فكان من الجاهلين

(الثانية) مبالغة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر بتركها وذم الغنى حتى جعل دخول الجمل في ثقب الابرة أيسر من دخول الغني ملكوت السماوات. ونقول ان هذه المسألة وسابقتها انما كانتا اصلاحا موقتاً لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم. والغلو يقاوم موقتاً بضده، وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان

وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلايقرر فيه إلا ماهو لمصلحة الناس كلهم في دينهم ودنياهم .وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف

والطغيان ،وذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء ـ ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه ،وانفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعز الملة ويقوي الامة، ويكون عونا لها على حفظ حقيقتها واستقلالها ـ فهذه المسألة وما قبلها مما أكمل الله تعالى به الدين، نبيا أوحاه من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بعقله الى أمثال هذا الاصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ، ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضاً، فهل الاقرب إلى العقل أن يكون بوحي من الله عز وجل أم من نفس محمد (ص)

وعلى ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير الدينية يلوكونها بالسنتهم ولا يعقلون فسادها، وهي أن الكمال البشري أن يعمل الانسان الخير لذاته أو لانه خير لا لعلة ، ويعدون من أكبر العلل أن يعمله رجاء في ثواب الآخرة أو خوفا من عقابها ، ومعنى هذا ان كانوا يفقهون ان من يقصد بعمل الخير والبر ما أرشد اليه الاسلام من تزكية نفسه وترقية روحه بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الاعلى — وأهلا لجواره في دار كرامته يكون ناقصا ، وانما يكون كاملا اذا خرج عن طبعه، وقصد النفع بعمله لغيره دون نفسه ، ودون ارضاء ربه ، ومن ذا الذي يحد حقيقة هذا الخير للبشر ويحملهم عليه ؟

وجملة القول أن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الامم القديمة وذلك دليل على أن اصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل، وأنه كان قد دب اليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها ، فجاء محمد النبي الامي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصلح ما كان من فسادها الذي جعلها غير كافلة لسعادة البشر الآخذين بها ، من شوب الايمان بالله بالشرك والتشبيه بالخلق ، وجعل الجزاء بالمحاباة والفداء ، لا بالحق والعدل، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو ، غير مثمرة لتزكية النفس ، ولا راجحة في ميزان العقل ، وعبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكملة لفطرة الانسان

واننا نقفي على هذا ببيان القرآن لما جهله البشر من أمر النبوة ووظائف الرسل . ثم نعود إلى بيان ما في وحي القرآن من قواعد الاصلاح العام الدائم للبشر الدال على كونه من عند الله لا من معارف محمد (ص) النابعة من نفسه

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

﴿ بيان ماجهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ﴾

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفرادا من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها وقليل ماهم ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب اسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما اعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الانبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في القسم الاول من هذا البحث ، ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الانبياء من رسل المسيح وغيرهم وعبدوهم أيضاً ، على انهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكاره إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم انه أسلمه لأعدائه ، وانه قال لهم « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أربابا من دون الله تعالى بأن نحلوهم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحريم (١) وكل ذلك من الكفر بالله وانكار عدله ، وعموم رحمته وفضله ، ومفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الاعظم منه مستعبداً لافراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمنذرين لجميع شعوبه بقوله (١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (٣٥ : ٢٤ إنا ارسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وكرم الانسان بجعل التشريع الديني

(١) راجع تفصيل هذا في (ص ٢٦٣) من جزء التفسير العاشر

من حقوق الله وحده ، وانما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته فقد أبطل ماتحلهم الناس من ربوبية التشريع، كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدينة ولاسيما النصارى

ولضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالتصريح بان الرسل بشر مثل سائر البشر يوحي اليهم ،وبانهم ليسوا إلا مبلغين لدين الله تعالى الموحى اليهم ، قال تعالى لخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف (١٨ : ١١٠ قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما إلهكم إله واحد) لآية وقال في جملتهم من وسطها (٥٦ ومانرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين) ومثلها في سورة الانعام (٦ : ٤٨) وفي معناهما آيات أخرى ـ بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل والتنفيذ ،وبانهم لايملكون للناس ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا هداية ولانجاة من العقاب على مخالفة شرع الله وسننه في خلقه في الدنيا ولافي الآخرة. وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٨٧:٧ قل لااملك لنفسي نفعا ولاضرا الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسني السوء .إن انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وسيأتي نظيرها في الآية ٤٩ من هذه السورة التي نفسرها ، وقد بين ذلك النبي ﷺ باقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لايدع لتأويل الآيات سبيلا . حتى فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال ان محمداً لما رأى خزي النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بان يقولوا « أشهد أن لاإله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

وأما مسألة الشفاعة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاعة لله جميعا وانه لايشفع عنده أحد إلا باذنه (٢١. ٢٨ يعلم

مابين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٩) ومن يقل منهم اني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزي الظالمين) وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيره مرارا (ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية المنفية في القرآن) . وقد كرر هذه المسألة دون تكرار ما قبلها لانها فرع لها فالاقناع بها أسهل

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله مالا يضرهم ولا ينفعهم، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء اهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على اقوامهم ؟ ام هو تابع من نفسه وهو يقتضي ان ما ينبع منها اعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما بينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لان اضافتهم الى الله تعالى وحده ووظيفتهم في ارشاد المكلفين تبليغ رسالته وشرعه واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لانفرق بين احد من رسله) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان وهو في الآيات (٤ : ١٥٠ ـ ١٥٢)

وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي ارسل به جميع رسله واحد في مقاصده من هداية البشر واصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والآخرة، وانما تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام ومقتضيات الزمان والمكان . فالايمان ببعضهم دون بعض اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يعتد به لانه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون اهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بانبياء بني اسرائيل وابيهم وجدهم على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها

واما المسلمون فيؤمنون بان رب العالمين ارسل في كل الامم رسلا هادين مهديين يؤمنون بهم اجمالا وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نبينها بعد

ومن المعلوم ببداهة العقل وبنص القرآن ان بعض الانبياء افضل من بعض بتخصيص الله تعالى وبما كان اكمل من نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جدا . قال الله تعالى (٢:٢٥٢ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ،وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس)

ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمدا خاتم النبيين الذي اكمل الله به الدين، وارسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم كلهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال وفصلناه في هذا البحث أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا انه ﷺ قال لاتباعه « لا تفضلوا بين انبياء الله» قاله انكارا على رجل من المسلمين لطم يهوديا لانه قال :لا والذي اصطفى موسى على البشر. فشكاه الى النبي ﷺ فغضب غضبا شديدا على صاحبه المسلم وقاله – وبين مزية لموسى عليها الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال «ولا اقول ان احدا افضل من يونس ابن متى» والحديث رواه الشيخان في الصحيحين وفي روايات أخرى للبخاري «لا تخيروا بين الانبياء » وفي بعضها «لا تخيروني على موسى» والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص احد من الانبياء عليهم السلام ومن التعادي بين الناس ومن الغلو فيه ﷺ والا فهو قد قال في تعليل نهيه عن سؤال أهل الكتاب عن شيء« والله لو كان موسى حيا بين اظهركم ماحل له الا أن يتبعني» رواه ابو يعلى من حديث جابر

فصل في الآيات الكونية التي أيد الله بها رسله

(ومايشبه بعضها من الكرامات، وما يشتبه بها من خوارق العادات، وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في القسم الأول من هذا البحث في آيات الأنبياء التي تسميها النصارى بالعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات، ويعدونها قسما من خوارق العادات التي جعلوها عدة أقسام، ونقول هنا كلمة وجيزة في إصلاح الاسلام لضلال البشر فيها، والصعود بهم أعلى مراقي الايمان، اللائق بطور الرشد العقلي لنوع الانسان، والعلم الواسع بسنن الاكوان، الذي منحوه برسالة محمد خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام، فنقول :

آيات الله نوعان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان : (النوع الأول) الآيات الجارية على سننه تعالى في نظام الخلق والتكوين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته وارادته، وإحاطة علمه وحكمته، وسعة فضله ورحمته، (والنوع الثاني) الآيات الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها وربما كانت أدلها عند أكثر الناس على اختياره عز وجل في جميع ماخلق ومايخلق، وكون قدرته ومشيئته غير مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون، فالسنن مقتضى حكمته واتقانه لكل شيء خلقه، وقد يأتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة، ولولا هذا الاختيار لكان العالم كالآلات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلم لها ولا إرادة ولا اختيار فيه، كآلة الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار، وآلات البواخر والمعامل الكبيرة، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة للوجود يعبرون عن هذا النظام بنظرية (الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العلل

والاسباب لكل ما يرونه مخالفا لسننه المعروفة ، ويسمون هذه الامور المخالفة لها بفلتات الطبيعة، ويقيسون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتنعوا بتعليل له وان لم يقم عليه دليل يثبته ، ويقولون ان ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أو لمن بعدنا غداً.

سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر، وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي بإذن الله تعالى وتسخيره، نعتقد أن لله تعالى سننا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة،وان الانسان هو حلقة الاتصال بين العالمين بجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة وروحه من عالم الغيب،وأنه مادام في عالم الجسد المادي فان جميع مداركه تكون مشغولة من المادة وسننها وحاجاته الشخصية والنوعية منها بما يحجبه عن عالم الروح الغيبي حتى روحه المتمم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والسلطان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، الا من اصطفى الله تعالى من رسله وأنبيائه فاعدهم بفضله ورحمته للاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ماشاء من غيبه ليبلغوا عباده عنه ما أمرهم به.

الغيب قسمان حقيقي وإضافي

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان: غيب حقيقي لا يعلمه الا الله ، وغيب اضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لاسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لأنه من خصائص النبوة غير المكتسبة [1].

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أوتوا نصيباً من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما للحجاب ، وإدراك ما للشيء من تلك الانوار ، كان بها ايمانهم برسلهم فوق إيمان أهل البرهان ، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال : لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحة ٤٢١ و٤٥٦–٤٦٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في ص٥١٣ من الجزء التاسع

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة ، أو معالجة النفس بانواع من الرياضة ، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان ارادة قوية على إرادة ضعيفة ، تصرفها عن حسها ، وتوجه قواها النفسية الى ماشاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها — قد يكون لهؤلاء الافراد في بعض الاحوال من قوة الروح مايلمحون به بعض الاشياء او الاشخاص البعيدة عنهم ، وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم ، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا

الخوارق الحقيقية والصورية عند الامم

ان الامور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة ، أو الخارقة للعادات المألوفة ، منقولة عن جميع الامم في جميع العصور نقلا متواتراً في جنسه دون افراد وقائعه ، وليست كلها خوارق حقيقية ، فان منها ماله أسباب مجهولة للجمهور ، وان منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص ، وان منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقوياء الارادة في ضعفائها ، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الامور والتنويم المغناطيسي ، وشفاء بعض المرضى ولاسيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ومنها بعض أنواع العمى والفالج ، فان من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه ، أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة ، وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغؤورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام باذن الله تعالى . وقد بينا هذه الانواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الامم وماوجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل يغترون بما عندهم منها ، ويخضعون

(١) راجع ص ٤٥ — ٦٠ ج ٩ من تفسير المنار

للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها ، ولاسيما إذا كانوا يأتون ماياتون منها على أنه من كرامات الاولياء وعجائب القديسين ، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التواريخ وماعند جميع الامم من ذلك، على أنه لايزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكة ولعله دون مافي بلاد الشرق ولاسيما القرى وهمج الزنوج وغيرهم

بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغريبة لا كسب لأحد من البشر ولاصنع لهم فيها ، وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولاعملهم ولا تأثيرهم ، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يامرهم الله تعالى بها . ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى ، فولى مدبرا ولم يعقب لشدة خوفه منها ، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه ؟ أولم تقرأ قوله لمحمد ﷺ (وما رميت اذرميت ولكن الله رمى؟) أو لم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا) وقوله (قل إنما الآيات عند الله) وما في معناها

جهل هذا الاصل المحكم من عقائد الاسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وان الانبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤا ، ويغرون الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرحال اليها لدعائهم والاستغاثة بهم عند نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالأطباء مثلا ، وبالتقرب اليهم بالنذور والقرابين كما كان المشركون يتقربون الى آلهتهم من الاصنام وغيرها ، وهم يأكلونها سحتا حراما ، ويخبرونهم بان دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم ، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم باجسادهم ويتولون قضاء الحاجات ، وكشف الكربات، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات .وقال بعضهم في كتاب مطبوع أن فلانا من الاقطاب يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويفقر ويغني

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية ، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة ، وذلك لايكون إلا باظهارها فهو واجب لاتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا لتبليغها ، وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير حجة الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصبر هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولايدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادراً ، وقد سألته المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها . فشكت اليه أنها تتكشف عند النوبة وأن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاءه

والأصل في الكرامة الاخفاء والكتمان ، وكثيراً مايكون ظهورها فتنة للناس ، وما كان أهلها يظهرون مالهم كسب فيه منها كالمكاشفة إلا لضرورة ، وقد صرح بهذا العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافا للمشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات الشافعية

(الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة ، فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة . والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة . فهي انما تقترن بكمال اتباع النبي من الولي – وأيضا فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار ، والكرامة مبناها على الاخفاء ، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص ، لا على الكثرة والعموم ، وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام القشيري وهو الصحيح اه ثم قال

(الحجة الرابعة) قالوا لوجاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين لما أمكن أن يستدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سراً فان من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لايظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سراً وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ،

ويكون ظهورها سراً مستمراً بحيث لا يلتحق بحكم المعتاد، فاذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه ؟ وأيضاً تكرر الكرامة يلحقها بالمعتاد في حق الاولياء وذلك يصدهم عن تصحيح النظر في المعجزة اذا ظهر نبي في زمنهم »

وقال في الجواب : لأ ئمتنا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ماذكروه . والثاني — وهو لمعظم أئمتنا — قالوا انه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا تخرج الكرامات عن كونها كرامات اهـ من مجلد المنار الثاني

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع اظهارها ، وقال الشيخ محيي الدين بن عربي ان مايتكرر لايكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات، وقال الشيخ أحمد الرفاعي ان الاولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، فأين هذه الاقوال مما عليه الدجالون الخرافيون وسدنة القبور المعتقدة من زعمهم أن الكرامة الواحدة تتكرر لاولياء كثيرين من الاحياء والاموات مراراً كثيرة وكلها ظاهرة ذائعة شائعة ، بل صناعة ذات بضاعة رابحة ؟

الكافرون بالآيات صنفان: مكذبون ومشركون وعلاج كل منهما

الكافرون بآيات الله تعالى صنفان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها ، وصنف يشرك بالله غيره فيها، فينحله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه، ويشرع للناس ان يعبدوا هؤلاء الاغيار بدعائهم من دونه واستغاثتهم فيما لا يقدر عليه غيره ، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك لمحبته لهم وجاههم عنده، ومعناه انه سبحانه هو الذي أشركهم معه فأعطاهم هذا التصرف في عباده، وانما يتحامون ألفاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ،فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ، ونبيه المرسل ، ولكنهم يحرفون

آيات الكتاب فيحتجون بها على جهلهم ، فيذكرون ان الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها ، وروي انه كان بتسخير بعض الناس لها ، ووحيه إلى أم موسى وما هو من فعلها . وقد قيل بنبوتها

وان افساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لاشد من إفساد المنكرين للآيات المكذبين بها، بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب بزعمهم أن الانبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه أو يبدلها يغيرها ويحولها عما وضعت له، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه، فكذبوا بالدين من أساسه ، فتكون فتنتهم شاملة لفريقي الكفار بالآيات ـ فريق المكذبين وفريق المشركين، وهو مع هذا قول على الله بغير علم ، وافتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله ، وهو أشد انواع الكفر بالله ، لان ضرره متعد بما فيه من إضلال الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة (١)

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بجهلهم لآياته وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكونهم بشراً اختصهم الله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً وانذاراً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة، ولم يؤتهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم اليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد ابراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدوا لله ورسوله وخليله ، وولد نوح أول الرسل إلى الامم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى له بحمله في السفينة فكان من الكافرين المغرقين ، وكان ابولهب عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادين عنه المؤذين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها

(١) راجع تحقيق هذا المعنى في ص ٣٩٧-٤٠١ ج ٩ من التفسير

المؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله ﷺ بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة « لا إله إلا الله » ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) رواه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤ وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر) الآيات (١) ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع (٢) وإذا كان الانبياء المرسلون لم يؤتوا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤتاه الاولياء وغيرهم

المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية عليها

وأما المنكرون لها فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرها من النبيين (ع . م) ولا يسلمون صحة تواترها ، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل، ويحتجون على ذلك بان يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع.م) لم ينقل للناس أخبار عجائبه التي تقصها الاناجيل التي ألفت بعده ، ويعللونها على تقدير صحة النقل بما يعللون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر، فان لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لابد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوها كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام (٣) من أخبار سائحي الافرنج في الهند حادثة لفقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هارداياس وقعت في سنة ١٨٤٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهراجا رانجيت سنجا أمير بنجاب وعرض

(١) ص ٥٣٤ – ٥٦٥ ج ٧ تفسير (٢) ص ٢٧٥ – ٥٧٨ ج ٨ تفسير
(٣) هي جريدة الاتحاد

عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد اظهاره فقال انه يدفن أربعين يوما ثم يعود اليهم حياً ، فاحضر المهراجا نفراً من أطباء الانكليز والفرنسيس وأمراء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه ــ كما أوصاهم ــ وخاطوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه ، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلها ، وأمر اثنين من رجال حرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتهما، و كان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا .

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجرة كما كان ، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد ، ثم فتحوا باب الحجرة وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أولئك من الانجليز . قال :

لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلا على إحدى الكتفين فخلتني أمام جثة هامدة فارقتها الحياة منذ امد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد اخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدريج، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى، وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد اليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً اليه دهشا متحيراً قال له « أرأيت يامولاي صدق قولي وفعلي ؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث ويطرفهم بما يحير العقول . اه

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة ، وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ليعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع.م) وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضا من بعض الوجوه فان الفقير الهندي قد سد أنفه ولف في كفن ووضع في تابوت دفن تحت الارض فحيل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة ، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف بابه إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم ، فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم ، وانما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثهم فيه ، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين ان قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية ـ حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم فان كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال ، وإن خفي سر آياته على خلقه ولا شيء من الامرين بمحال. وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر .

ولكن ماجرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فاذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لابدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كامنة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك ، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء انكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة ، ولا سيما فعل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته ، وواضع نظام السنن والاسباب بمشيئته ، وأكثر منكري الخوارق يؤمنون به ، وانما ينكرون وقوع شيء مخالف لسننه بانه مناف لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علما؟ وانما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا اذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ؛ وهذا هو المعتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم ، وقد ثبت في هذا العصر من خواص

الكهرباء وغيرها مالو قيل لعقلاء الناس وحكمائهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات ،
لحكموا على مدعي امكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات ، كما قلنا من قبل

الفرق بين الخوارق الكسبية والحقيقية

وجملة القول ان أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه عز وجل – وانه قد وجد في كل عصر وقائع غريبة تعد من هذه الاسرار الجارية على غير نظام السنن الالهية في الخلق ، بحسب مايتراءى للجمهور بادي الرأي ، وان ما يتناقله الجمهور الولع بالغرائب منها منه ماهو كذب محض ، ومنه ماله أسباب علمية او صناعية خفية يجهلها الاكثرون ، ومنه مايظن انه من خوارق العادات وليس منها ، ومنه ماسببه الوهم كشفاء بعض الامراض ، أو انخداع البصر بالتخييل الذي يحذقه المشعوذون ، ومنه ما فعله سحرة فرعون المبين بقوله تعالى (فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى) ومنه انخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون استخدام الجن إذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم ان ذلك صوت الجني ، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يحركوا شفاههم ، فلا يوثق بشيء من أخبارهم ولا من نقلهم — ومن الدلائل على كذب المنتحلين لهذه الغرائب انهم جعلوها وسيلة لمعايشهم الدنيئة ، وانهم لو كانوا صادقين فيها لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في صحبتهم والاهتداء بهم .

المعجزات قسمان : تكوينية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن ولكنها بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام الاستثنائية في قوانين الحكومات أو ما يكون بارادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة – ولله المثل الاعلى – وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية .

أما المأثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع.م) و أثبتها القرآن له كالآيات التسع بمصر فهي من القسم الاول ، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري ، وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه ،

جل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع . م) إلا ما يأمره الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بعصاه التي هي آيته الكبرى . ولم يرد لاحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلا عمن دونهم، ولا هي مما يحتمل أن يكون بسبب من الاسباب التي تكون لاحد من الناس بالرياضة الروحية أو خواص المادة وقواها.

وأما المسيح (ع.م) فالآيات التي أيده الله تعالى بها - على كونها خارقة للعادات الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس - قد يظهر فيها انها كلها او جلها حدث على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقد حملت أمه به بنفخة من روح الله عز وجل فيها - وهو الملك جبريل عليه السلام — كانت سبب علوقها به بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر آياته أعظم من مظاهر سائر الروحيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين ان روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل، وانها لم تكن بعمل كسبي منه بل من اصل خلق الله عز وجل له بآية منه كما قال (٢١: ٩١ والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين* ٢٣ : ٥٠ وجعلنا ابن مريم وأمه آية) بآيتها هي الحمل به وخلقه بنفخ الروح الالهي، لا بسبب التلقيح البشري ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والانوثة في رحمها*

وأعظم آياته الروحانية التي أثبتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الاناجيل الاربعة (وروي أنها منصوصة في انجيل الطفولية الذي نبذته المجامع الكنسية قبل البعثة المحمدية ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من روحه فيكون طيراً باذن الله تعالى ومشيئته. والمروي أنه كان يطير قليلا ويقع ميتاً .

ودون هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيه سيال روحه القوي إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سبباً روحانيا لاعادة روحه اليه باذن الله ومشيئته ، كما يمس النور ذبال السراج المنطفىء فتشتعل أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية بعد انقطاعها فيتألق النور منهما. وقد ثبت عن بعض اطباء هذا العصر إعادة الحياة

الحيوانية الى فقدها عقب فقدها بعملية جراحية أو معالجة للقلب

ومن دون هذا وذاك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الاناجيل أم غيره ، فان الشيطان روح خبيث لايستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح القدس جبريل عليه السلام واتصاله بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا لشيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من الروحانيين وما من مرض عصبي أو غيره إلا وهو ضعف في الحياة حقيق بأن يزول باتصال هذا الروح بالمصاب به لأنه أعظم أسباب الحياة والقوة

ومن دون هذا وذاك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) وقد أنبأ غيره من أنبياء بني اسرائيل وغيرهم بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلة ، وكذا غيرهم من الروحانيين ولاسيما صالحي أمة محمد ﷺ ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف ، وطول المدة وقصرها، والثقة بالمرئي وعدمها، وإدراك الحاضر الموجود ، والغائب المفقود، وما كان في الازمنة الماضية، وما يأتي في الازمنة المستقبلة، فأعلاها خاص بالانبياء إذ لم يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الاولى كأخبار القرآن عن الرسل الاولين مع أقوامهم، أو مايقع بعد سنين في المستقبل كاخباره عن عود الكرة للروم على الفرس، واخباره ﷺ بفتح الامصار واتباع الامم لامته، ثم بتداعيهم عليها ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار وقد شاهدنا من فعله ، ومنها مراسلة الافكار

فتبين بهذا وذاك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع م) بمحض قدرته تعالى دون سنة من سننه الظاهرة في قواه الروحية، وأن آياته لعيسى (ع.م) بخلاف ذلك . والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيئته واختياره في أفعاله في نظر البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم

عبادة بعض الناس للمسيح وللاولياء دون موسى

وانما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلها ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا

أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لحلوله فيه واتحاده به بزعمهم، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده ، ولم يفطنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلا مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ماحرم عليهم بظلمهم عقوبة لهم ، ومن تحريم ماكانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصارى في هذا من يفتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضر ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخل عندهم في باب الكرامات، وهو خاص بالرب تعالى، ولكنهم لايطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الاله ولا الخالق، إذ الاسماء اصطلاحية ، وانما الفرقان بين الخالق والمخلوق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضر لمن شاء وصرفهما عمن شاء بما يسخره من الاسباب وبدونها ان شاء — وان المخلوق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه ، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها ، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار مالم يعهد مثله لاحد من خلق الله قبلهم لا الانبياء ولاغيرهم، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها . فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتا ، وانما تطلب من أسبابها . وماوراء الاسباب لايقدر عليه إلا الله عز وجل. وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء ، وآذوا بعضهم بضروب من الايذاء ، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم . ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضر عن كل ماعبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعة عند الله تعالى كما قال (١٠ : ١٨ ويعبدون من دون ما لايضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله) الآية ومثلها آيات، وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (٧ : ١٨٨ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً الا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال

﴿ قل اني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً ﴾ الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مراراً ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية :

(١) ان الله تعالى قد أتقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الاسباب بالمسببات . فمخلوقاته العليا والسفلى ، هي مظهر أسمائه وصفاته العلى . ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس في الامكان أبدع مما كان . وهذا النظام المطرد في الاكوان ، الثابت بالحس والعقل ونصوص القرآن — هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض ﴿ لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ﴾

(٢) إن سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل . وكلما ازداد البشر فيها نظراً وتفكراً واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفا ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ولا يظنون ، ومن منافعها مالم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون ، وها نحن أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحربية تحلق في الجواء ، حتى تكاد تتجاوز محيط الهواء ، ومراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، ونراهم يتخاطبون من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع أهل المشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم وأغانيهم ، قبل أن يسمعها بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام(*) وقد يغمز أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بغمزته آلات عظيمة في قارة أخرى في طرفة عين ، وبينهما المهامه الفيح ، والجبال الشاهقة ، ومن دونهما البحار الواسعة ، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والعلوم العملية ، لا يزالون يلجئون في طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الاسباب — التي ضيق الجهل عليهم سبلها — إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين ، ليقضوا لهم حاجهم ، ويشفوا

*) روي لنا ان آلة الراديو الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي تحمله إلى مصر وغيرها فتعكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقي فيه

مرضاهم ، ويعينوهم على أعدائهم من زوج وقريب وجار ووطني ، وأعداؤهم من الاجانب قد سادوا حكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستأثروا بجل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الاولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم وتحكمهم

(٣) ان الاصل في كل مايحدث في العالم ان يكون جاريا على نظام الاسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لاتغيير فيها ولا تبديل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن فالاصل فيه ان يكون كذبا اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الاسباب الخفية التي يجهلها المخبر، كما حققه علماء الاصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمة في خلقه لايمكن العلم بها إلا بدليل قطعي وقد كان من حكمته ان أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لاقامة حجتهم وتخويف المعاندين لهم ،وقد انقطعت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسالته ، وجعل ماأوحاه اليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقائهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لعلمه تعالى بأنهم لايحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وقد تقدم بيان دلالته العقلية العلمية على كونه من عند الله تعالى

ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ الى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الاديان والنحل الجديدة لما كان لختم النبوة معنى ولذلك ينكر البهائية والقاديانية ختم النبوة وانقطاع الوحي،ويدعونهما للباب والبهاء، ولغلام احمد القادياني وخلفائه بلا انقطاع ، حتى سامها المرتزقة منهم والرعاع

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الامم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة يلغ فيها رشده واستوى،وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية

العليا (هداية القرآن) بعد ان كان لاسبيل إلى إذعانه لتعليم الوحي، إلا مايدهش حسه ويعيي عقله من آيات الكون

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة ان سمو عقل الانسان وسلطانه على قوى الكون الاعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ماعجز عن إدراك سببه ومنشأه فاعتقد انه من قبل السلطان الغيبي الأعلى لمدبر الكون ومسخر الاسباب فيه ، فكان من رحمة الله تعالى به « انه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين، هادين، وميزهم من بينها بخصائص في أنفسهم لايشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، ويذل الجامح ، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار ، أو يحير الحواس ، او يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له، واختص العقل بالخطاب، وحاكم اليه الخطأ والصواب، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجة وآية الحق الذي (لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لايمكن اثبات معجزات الانبياء إلا بالقرآن

(٦) انه لايمكن إثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لايمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها ، بناء على إنكار العلماء الواقفين على كتب الاديان التي قبل الاسلام — حتى كتب اليهود والنصارى — وعلى تواريخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات والاشتباه في كونها خوارق حقيقية ، وحجتهم ان التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها ، وهو نقل الجمع الكثير الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدركوه بالحس وحمله عنهم مثلهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل بدون انقطاع ، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على

الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم لبعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له، وعدم إمكان رده اعتقاداً ووجداناً، وهذا غير حاصل في آيات الانبياء الاولين عندهم.

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلا في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن ، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه وقد شرحنا شبهتهم عليه وبينا بطلانها في هذا البحث ، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رسله وإقامة حجتهم أم لا ، وكما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها ، يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ.

وإذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلما في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن مايدعيه الناس من الخوارق في جميع الامم أكثره كذب وبعضه صناعة علم أو شعوذة سحر، وأقله من خواص الارواح البشرية العالية.

(٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً . فما كانت دلالته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ارتداد عن الاسلام ، وما كانت دلالته ظاهرة غير قطعية وجب حمله على ظاهره إن لم يعارضه نص مثله أو أقوى منه ، فان عارضه فحينئذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالادلة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداع

﴿ خلاصة الخلاصة لهذا الفصل ﴾

اننا نؤمن بان الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته وارادته ، واختياره وحكمته ، وانه « أحسن كل شيء خلقه » كما قال في سورة الم السجدة ، فهو « صنع الله الذي أتقن كل شيء » كما قال في سورة النمل ، وانه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور ، كما قال في سورة الملك، وانه خلقه بنظام وتقدير لاجزافا ولا انفا[1] كما قال في سورة القمر (إنا كل شيء خلقناه بقدر) وقال في سورة الفرقان (وخلق كل شيء فقدره تقديراً) وقال في سورة الحجر (وأنبتنا فيها من كل شيء موزون[2] وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم)

وان له تعالى في نظام التكوين والابداع ، وفيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع ، سننا مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لاتتبدل ولا تتحول محاباة لأحد من الناس ، وانها عامة في عالم الاجسام وعالم الارواح ، وقد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور

ونؤمن بان له تعالى في خلقه آيات بينات ، وان له في آياته حكما جلية أو خفية ، وان مامنحنا إياه من العقل والشرع يأبيان علينا أن نثبت وقوع شيء في الخلق على خلاف ماتقدم بيانه من نظام التقدير وسنن التدبير ، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل والحس في اثباته وتمحيصه، وانه لابد ان يكون وقوعه لحكمة بالغة لاعن خلل ولا عبث ، وان ماخفي علينا من حكمه كسائر مايخفي علينا من أمور خلقه ، نبحث عنهما لنزداد علما بكماله ونكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ، ولا نتخذها حجة ولا عذراً على الكفر به لجهلنا ، وقد ثبت لأعلم العلماء منا أن ما نجهل من هذا الكون أكثر مما نعلم ، ويستحيل أن يحيط البشر به علماً.

---

(١) الانف بضمتين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير ولا نظام فهو ضد القدر (٢) وصف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي اظهرتها العلوم الحديثة فكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المئوية

ونؤمن بان الله تعالى قد منحنا رسلا هدونا بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس ، وما يستنبطه الفكر منها بادي الرأي ، إلى ماوراءها من سعة عالم الغيب ، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الالوف من السنين ينكرون وجود مالم يكونوا يدركونه بحواسهم من الاجسام وأعراضها ، ويقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها .

وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود حتى وصلوا إلى ماوصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر الى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها

فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات (الاولى) جعلها دليلا حسياً على اختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته (الثانية) جعلها دليلا على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوحيه ونذراً للمعاندين لهم من الكفار ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم باستعداد روحي لما كانت آية على صدقهم (الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات ، وضيق نطاق المحال في المعقولات ، وإلى ان كون الشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المعهودة والسنن المعروفة ، لا يقتضي أن يكون محالا يجزم بعدم وقوعه ، وبكذب المخبر به ، مع قيام الدليل على صدقه ، وإنما غايته أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوته على الدليل الصحيح وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر ، فلا ينقصهم لتكميل علمهم إلا ثبوت آية لله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون

ولكن الامر قد انقلب إلى ضده فان كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم

والاعمال المقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من المقول قد صارت هذه العلوم نفسها سببا لانكارهم ما كان سببا لها وموصلا اليها (وهو الآيات والايمان بالغيب) — لا إنكار امكانه بل إنكار ثبوته بالفعل ، فهم ينكرون أن يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون باقداره وتوفيقه نظيراً له في الغرابة ، وكان ينبغي لهم أن يجعلوه دليلا عليه مبيناً لحقيته كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ولكنهم كلما أراهم آية من آياته الروحية في انفسهم او من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة بقياس ما لم يعرفوا على ماعرفوا ، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه ، وظلوا على لبسهم ، كالذين طلبوا ان ينزل عليهم ملكا رسولا فقال فيهم (٦: ٩ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي لما كانوا لايمكن لهم أن يدركوا الملك ويتلقوا عنه إلا إذا كان بصورة رجل مثلهم وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثلهم ، ولو جعل الله الملك رجلا مثلهم لالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار كون الرسول بشراً مثلهم وهكذا يفعلون الآن : ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات روحية من المكاشفات والتأثير في المادة فشبهوها بما عرفوا من نقل الكلام بالسيال الكهربائي وغير ذلك ، حتى لايعترفوا بآية إبداعية من الخالق لا تخضع لعلمهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

ان حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية لله تعالى من هذا النوع قد جعل حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم مهددة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم ، وجميع علمائهم المصلحين وساستهم الدهاقين في حيرة من تلافي هذا الخطر وان يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين ، وهذا ماجاءهم به محمد خاتم النبيين ، ولأجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه المبين ، إذ لايمكن ان يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم ، بقيام الدليل على انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استعدادهم ، وسنبين هذا الجمع فيما يأتي من هذا البحث المثبت لاعجاز القرآن

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

﴿ بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ﴾

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر بها[1] مقاومة فطرتهم ، وتعذيب أنفسهم ، ومكابرة عقولهم وبصائرهم ، خضوعا للرؤساء الذين يلقنونهم إياها ، فان انقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الفائزين ، وإن خالفوهم سراً أو جهراً كانوا من الهالكين

حتى إذا بعث الله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — بين لهم أن دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ، وان لا سيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا ، ونبين هذه المزايا بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الاسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠: ٣٠ فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ـ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة ، وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيغ وهو الميل عن الحق الى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية ، الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروحانية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما ، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان غيبي

(١) الظرف متعلق بالمصدر الذي بعده وفعل التكليف يتعدى بنفسه وعلماء الاصول والفقه يعدونه بالباء

فوق قوى الكون والسنن والاسباب التى قام بهما نظام كل شيء في العالم ، فرب هذا السلطان هو فاطر السموات والارض وما فيها ، والمصدر الذاتي للنفع والضر المحركين لشعور التعبد الفطري ، وطلب العرفان الغيبي ، فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني إلى هذا الرب الغيبي في كل ما يعجز الانسان عنه من نفع يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضر يمسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بحوله وقوته ، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها لمعرفته والوصول اليه مما لا نهاية له. وأعني بالانسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فانه يعده من مقدوره ، ويعد مساعدة غيره له من جنس كسبه، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر — فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاده واستعدائه على أعدائه ، وخنوع السوقة للملك أو الامير لخوفه منه أو رجائه — لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الامم ولا ملة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ومخها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ، ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد قال ﷺ « الدعاء هو العبادة » [1] هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الاعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة » [2] وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له — هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر

وعلى هذا الاصل يبني الدين التعليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل، ولا يقبله البشر بالاذعان والوازع النفسي إلا إذا كان الملقن لهم إياه مؤيداً في تبليغه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى والتصرف الذاتي المطلق في جميع العالم ، الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها ، وهو الله رب العالمين ، وقد شرحنا هذه الحقيقة مراراً وبينا في مواضع من

١) رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٢) رواه الترمذي عن انس

التفسير والمنار معنى كون الاسلام دين الفطرة، وانه شرع لتكميل استعداد البشر للرقي في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدة إياهم لسعادة الآخرة، فليس فيه شيء يصادمها

فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونه، فهو لنوع الانسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الاستاذ الامام

(٢) الاسلام دين العقل والفكر

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة « العقل » ولا ما في معناها من أسماء هذه الغريزة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كاللب والنهى ، ولا أسماء التفكر والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل ، ولا ان الدين موجه اليه ، وقائم به وعليه . اما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة ، وأما ذكر أولي الالباب ففي بضع عشرة مرة ، وأما كلمة أولي النهى اي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه

أكثر ماذكر فعل العقل في لقرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون المخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ومشيئته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤ إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون) ويلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (٦ : ١٥١ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وكرر قوله (أفلا تعقلون) أكثر من عشر مرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٠ : ١٦ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة الملك (٦٧ : ١٠ وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (٧ : ١٧٩ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم

آذان لايسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الحج (٢٢ : ٤٦ أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية

كذلك آيات النظر العقلي والتفكر والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم ان أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وان الغافلين الذين يعيشون كالانعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس ولا تصعد بها في معارج الكمال، بعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) وقوله (٣٠:٨ أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقوله في صفات العقلاء أولي الالباب (١٩١:٣ ويتفكرون في خلق السموات والارض) وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزائن الارض عن الرسول ﷺ وحصر وظيفته في اتباع الوحي (٦ : ٧ قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون)

وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الارض، من أن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه . اه وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية امم الغرب من المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رءوسهم فحرموها على أنفسهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم

(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الاسراء (١٧ : ٣٦ ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الراغب : اي لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوي ما ملخصه : ولا تتبع مالم يتعلق به علمك تقليداً او رجما بالغيب، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ (ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين) ومنه قوله تعالى في علوم

البشر المادية (٣٠ : ٦ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) الخ وقوله فيما دون العلم الروحي (١٧ : ٨٥ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)

وقوله في العلم العقلي (٢٢ : ٨ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) الظاهر ان المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابلته بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين. وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢ ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام أي علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر اخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨ انما يخشى الله من عباده العلماء) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها

عظم القرآن شأن العلم تعظيما لا تعلوه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣ : ١٨ شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) الآية، فبدأ عز وجل بنفسه وثنى بملائكته، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة، ويدخل فيها الانبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨ : ١١ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله (وقل رب زدني علما)

ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ماورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا، ان الظن لا يغني من الحق شيئا) ومثله (٥٣ : ٢٧ وما لهم به علم ان يتبعون الا الظن وان الظن لا يغني من الحق شيئا) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤ : ١٥٦ مالهم به من علم الا إتباع الظن)

وبلغ من تعظيمه لشأن العلم والبرهان ان قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢ قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به عليكم سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) السلطان البرهان :

وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨ ووصينا الانسان بوالديه حسناً ،

وان جاهداك على ان تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما) ومعلوم من الدين بالضرورة ان الشرك بالله لايكون بعلم ولا ببرهان، لانه ضروري البطلان. وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجة والدليل وما يليه من ذم التقليد

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢٦٩:٢ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٢ : ٢ هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران . وقال لرسوله ممتناً عليه (٤ : ١١٢ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) وقال له (١٢٥:١٦ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال له في خاتمة الوصايا بأمهات الفضائل والنهي عن كبائر الرذائل، مع بيان عللها وما لها من العواقب (٣٩:١٧ ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) وقال لنسائه رضي الله عنهن (٣٤:٢٣ واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة)

وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسله الحكمة، ولكن أضاعها أقوامهم من بعدهم بالتقاليد والرياسة الدينية، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح . قال الله تعالى في اليهود(٥٤:٤ أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما) فالكتاب أعلى مايؤتيه تعالى لعباده من نعمه ويليه الحكمة ويليها الملك . وقال في نبيه داود عليه السلام(٢٥١:٢ وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء) وقال لنبيه عيسى عليه السلام (٦ : ١١٣ وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل) وقال (٣١ : ١٢ ولقد آتينا لقمان الحكمة) وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها. فالحكمة أخص من العلم ،هي العلم بالشيء على حقيقته وبمافيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل، فهي بمعنى الفلسفة العملية كعلم النفس والاخلاق وأسرار الخلق،ويدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الاسراء (ذلك مما أوحى اليك ربك من الحكمة) ولولا اقتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة . ألا ترى انه سمى

فيها المبذرين للمال « إخوان الشياطين » لانهم يفسدون نظام المعيشة باسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عقبه (وكان الشيطان لربه كفوراً) ثم قال (٢٩ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً) فعلل الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوما من الناس ومحسوراً في نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المغطى ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضاً . وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة يوقعه إسرافه في العدم والفقر الخ وحسير البصر كليله وقصيره

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق الحقائق الذي يكون به العالم حكيما

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٤ : ٧٣ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال (٢٣ : ١١٧ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به عند ربه فانما حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتج به عند ربه مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيما لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسلهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضرتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال (٢٨ : ٧٥ ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم ، فعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون) .

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ..) ثم قفى عليه بمطالبة المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال (٢٤ أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم) الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤ أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ؟ أإله مع الله ؟ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العلمية لهم على بطلان

شركهم (٦ : ٨١ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ثم قال في آخره (٨٣ وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) فالدرجات هنا درجات الحجة والبرهان العقلي على العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان بلفظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا) الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦ ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم ان في صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه) الآية ، وفي عدة سور انه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين)

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الانسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من الفؤاد معروف ــ يعني انه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اه وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقوله في سورة الشعراء (يوم لاينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ومدحه لخليله ابراهيم ﷺ بقوله (إذ جاء ربه بقلب سليم) وقوله حكاية عنه (ولكن ليطمئن قلبي) وقوله في صفة المؤمنين (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ ، وعبر عن فقدها للاستعداد للحق والخير بالطبع والختم والرين عليها اي انها كالمختوم عليه فلايدخله شيء جديد

(١) راجع صفحة ٤١٩ من جزء التفسير التاسع

وإذ كان الاسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، منع ما كان عليه النصارى وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه والفتنة والاضطهاد لمخالفيهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بيناها في محالها، ومن دلائلها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود

كل مانزل من الآيات في مدح العلم وفضله واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنعي على أهله آيات كثيرة كقوله (٢: ١٧٠ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون) وقوله تعالى (٥: ١٠٤ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقي في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل فان الحياة تقتضي النمو والتوليد، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) انهم باتباعهم لآبائهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم، وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله (٧: ٢٨ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣: ٢٠ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ٢١ أم آتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون ٢٢ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وقد وردت الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصافات.

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فان هذا جناية على الفطرة البشرية والعقل والفكر

والقلب التي امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الامم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رءوسهم ، واتبعوا سنن من قبلهم من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لآبائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علمائهم، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمروهم به، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم وصاروا حجة على دينهم، حتى ان أدعياء العلم الرسمي فيهم ينكرون أشد الانكار على من يدعونهم الى اتباع كتاب الله وهدي رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله، ونحن معهم في بلاء وعناء، نقاسي منهم ماشاء الجهل والجمود من استهزاء، وطعن وبذاء ، وتهكم بلقب « المجتهد » الذى احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء

ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم أفواجا حتى يعم الدنيا . لان التعليم العصري في جميع مدارس الارض يجرى على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد المقلدة لهم. ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الاديان تقليدية ويعتدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم، فلهذا يرون الاولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ، لانه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن، وما بينه من سنة خاتم النبيين ﷺ وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين، رضوان الله عليهم أجمعين

دحض شبهة ، وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال في فهمها التي اشتهر المنار في عصرنا بها، هي التي جرأت بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الائمة والانتقاد عليهم وعلى اتباعهم بما هو ابتداع جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد. وهو وهم سببه الجهل بالدين وبالتاريخ ، فمذاهب الابتداع والالحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة، وكان أشدها إفسادا للدين الدعوة الى اتباع الأئمة المعصومين، الذين لا يسئلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بعد

محمد المعصوم الذي لامعصوم بعده ﷺ ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم حتى ملاحدة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي اليهم من أدعياء العلم . وانما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل ـ ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لانتساب جميع الدجالين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الائمة

ان في كتب التفسير والفقه والتصوف وشروح الاحاديث للعلماء المنسوبين إلى الائمة كثيراً من البدع والخرافات التي يتبرأ منها أئمة الهدى، وترى علماء الرسوم الجامدين يحتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها، وصاحب المنار قد انفرد دون علماء مصر بالرد على هؤلاء وعلى البابية والبهائية والقاديانية والتيجانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا، ولله الحمد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه المزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فالاصل فيه قوله تعالى لرسوله ﷺ بمكة (١٠: ٩٩ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين؟ ١٠٠ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والارض ،وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض، فما كان يتمناه ﷺ من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للايمان وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ،والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر

ثم قوله تعالى له عند ما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم

عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢:٢٥٦لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) الآية — فأمرهم ﷺ أن يخيروهم فمن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الاسلام ، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الاية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى (٢:١٩١ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله) من سورة البقرة . ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الانفال التي بلفظها مع زيادة (كله) فراجع تفسير هذه الآية في ص٦٦٥ ج٩ تفسير

وأما منع رياسة السيطرة الدينية كالمعهودة عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن ، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام ، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (ص) ٨٨: ٢١ فذكر إنما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر) :

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان)

وحدة الامة ـ وحدة الجنس البشري ـ وحدة الدين ـ وحدة التشريع بالمساواة في العدل ـ وحدة الاخوة الروحية والمساواة في التعبد ـ وحدة الجنسية السياسية الدولية ـ وحدة القضاء ـ وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون ، يتعادون في الانساب والالوان ، واللغات والاوطان والاديان ، والمذاهب والمشارب ، والشعوب والقبائل ، والحكومات والسياسات ، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن وافقه في البعض الآخر ، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم ، وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية ، وبيان أصول الكتاب الالهي وسنة

خاتم النبيين في الجامعة الانسانية ، لا يمكن بسطها إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذه الخلاصة الاستطرادية في اثبات الوحي المحمدي ، بسرد الاصول الجامعة في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس ملة واحدة ، ودين واحد ، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، وربهم واحد.

ونبدأ بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المفصلة له

﴿ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية وحدة الامة ﴾

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطبا أمة الاسلام (٢١ : ٩٢ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون).

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للامة فقال (٢٣ : ٥١ يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم (٥٢) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأمته جميع الناس ، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم كما تقدم ، فالايمان بخاتمهم كالايمان باولهم وبمن بينهما ، فمثلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم بنسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً الى ان كمل الدين

(الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ : ١٣ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد بلغ النبي ذلك للامة يوم العيد الاكبر بمنى في حجة الوداع . وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة الى التآلف بالتعارف ، والى ترك التعادي بالتخالف .

(الاصل الثالث) وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء باصول الدين الفطري الذى جاء به غيره من الرسل وأكمل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الاعم قوله تعالى (٧ : ١٦٨ قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختياريا بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي).

(الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الاسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر، والملك والسوقة، والغني والفقير ، والقوى والضعيف، وسنذكر بعض شواهده في إصلاح التشريع فيه

(الاصل الخامس)الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعباداته وفي الاجتماع الاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج، فلوك المسلمين وأمراؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجد شعوب الافرنج المنتسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هـذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم قال تعالى (٤٩: ١٠ انما المؤمنون إخوة) وقال في سياق الكلام عن المشركين المحاربين (٩: ١١ فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بان تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسـلامي متساوية في الحقوق العامة إلا حق الاقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين لان للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل كلها أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها لايجوز لغير أهلها دخولها بغير إذن منهم، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة إلا انه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية فان الاسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكموا إلى علماء ملتهم ، واذا تحاكموا الينا فاننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الناسخة لشرائعهم، والاصل فيه قوله تعالى (٥: ٤٢ فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) وقوله بعد آيات (٤٩ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)

(الأصل الثامن) وحدة اللغة ولا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة . وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الامنية قد حققها الاسلام بجعل لغة الدين والتشريع والحكم لغة لجميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم الى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمهما والتعبد بهما والاتحاد باخوتهم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا وحكما عربيا وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون لحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الامويين والعباسيين الى أن كثر الاعاجم وقل العلم وغلب الجهل فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه في العبادات من القرآن والاذكار (فراجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع)

ولقد كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجعلهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة ، أما الاول فمشهور وأما الثاني فيجمعه مع الاول الشاهد الآتي

روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال

الحبشي فقال : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟ (يعني هذا المنافق بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره ؟)

فقام اليه معاذ بن جبل (رض) فأخذ بتلبيبه (أي بما على لبيه ونحره من الثياب) ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقالته ، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة — وقال ﷺ

« يا أيها النـاس ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحـد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي» فقام معاذ ، فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال «دعه إلى النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟ أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت هذه الفئة من ملاحدة الترك تجد سبيلا لاجتثاث هذه الدوحة الباسقة من جنة حكم الاسلام ، وامتلاخ هذا السيف الصارم من غمده ، والحيلولة بينه وبين كتاب الله المعصوم المنزل من عند الله باللغة العربية ، وسنة رسوله المصلح لشعوب البشر وهي بالعربية ، لاجل تكوين هذا الشعب وما أدغم ويدغم فيه من الشعوب تكوينا جديداً ، برابطة لغة تخلق خلقا جديداً ، لاجل أن يلحق بالشعوب الاوربية دعياً ، كما يلصق الولد بغير أبيه إلصاقاً فرياً ، فيقال ان رجلا عظيما جدد أو أوجد شعبا ولغة ودولة ودينا ؟ هيهات هيهات لما يبغون

لقد كان هذا الشعب (الترك) قائما باسم الاسلام على رياسة روحية يدين لها أولها زهاء اربعمائة مليون من البشر ، ولو أوتي من العلم والحكمة ما يحسن به القيامة ، ومن الحزم والعزم ما يعزز به القيادة ، ومن النظام ما يحكم به السياسة ، لأمكنه أن يسوس بها الشرق ، ثم يسود بنفوذها الغرب ، كما كان يقصد نابليون الكبير لو تم له البقاء في مصر

يعترض بعض أولي النظر القصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة بأنه خلاف طبيعة البشر ، ويرد عليهم بان توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة

البشر، ان أريد بالبشر جميع أفرادهم، وان الحكماء ما زالوا يسعون لجمع البشر على لغة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقي بعض اللغات بترقي أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأبى أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١: ١١٨ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم — هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر ما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار

دعا الاسلام البشر كلهم إلى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد، وعلى شعوبه من الجهل والفساد، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الامم، فمن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه

قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة: انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب، ولولا ذلك لعم الاسلام العالم كله ولكنا نحن الألمان وسائر شعوب أوربة عربا مسلمين

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلمتهم عليها بالوازع النفسي من الوحي النفسي الذي نبع من نفس محمد ﷺ الامي في سن الكهولة ففاق بها جميع الانبياء والحكماء أم الاقرب إلى العقل أن تكون بوحي الله تعالى أفاضه عليه؟؟

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

(تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات)

(ونلخص اهمها بالاجمال في عشر جمل)

(١) كونه وسطا جامعا لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى (٢: ١٤٣ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) الآية وقد بينا في تفسيرها ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية، وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم.

(٢) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايمان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق، ومحاسن الاعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه

(٣) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف وتقدمت شواهده في كونه عاما مكملا ومتمما لدين الله على ألسنة رسله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني. وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بيناها في المقصد الرابع

(٤) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعنات، قال الله عز وجل (٢: ٢٨٦ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقال بلغت حكمته (٢: ٢٢٠ ولو شاء الله لأعنتكم) وقال عظمت رأفته (٢: ١٨٥ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال جلت منته (٢٢: ٧٧ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال عمت رحمته (٥: ٧ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج)

ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف أداؤه ويحرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم — الاول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي

بل يكفر باطعام مسكين إذا قدر . وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن ، وإن كان تحريمه أو النهي عنه لسد ذريعة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا و آيات الصيام ، وآية محرمات الطعام

وقد بينا مسألة يسر الاسلام العام بالتفصيل في تفسير (٥ : ١٠٤ يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) من الجزء السابع وجمع في رسالة خاصة.

(٥) منع الغلو في الدين وإبطال جعله تعذيباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٧ : ٣١ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم) وهو في (٥ : ١٧١) و (٦ : ٧٧) وفي هذا النهي اعتبار للمسلمين لأنهم أولى بالانتهاء عن الغلو بأن دينهم دين الرحمة واليسر : والأحاديث الصحيحة في نهي المسلمين عن الغلو في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ له بالحنيفية السمحة

(٦) قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يجيء النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في مجلس واحد فيعاهده على العمل به فيقول «أفلح الاعرابي إن صدق» وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له. ولكن الفقهاء أكثروا التكاليف بآرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بها متعسراً ، والعمل بها متعذراً

(٧) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم . والناس درجات في التقصير والتشمير.

والاعتدال ، فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات ، قال الله تعالى (٣٥:٢٢ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير)

(٨) نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيهما درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعي منها هو العام ، وغير القطعي تتفاوت فيه الافهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الخمر والميسر الدالة على تحريمها دلالة ظنية فتركهما بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده الى أن نزلت آيتا المائدة بالتحريم القطعي . قال تعالى (٢٩: ٤٣ وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد ، والاول مذهب الحنفية وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً ، وأما الآيات الظنية الدلالة والاحاديث الآحادية الظنية الرواية أو الدلالة فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولي الامر في الاحكام القضائية والمسائل السياسية. وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار

(٩) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا لخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على مايعتقد أو يضمر في قلبه وانما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ، وقد فصلنا هذا في خلاصة تفسير سورة براءة - التوبة

(١٠) مدار العبادات كلها على اتباع ماجاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رياسة ، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية ، والآيات والاحاديث في الامرين كثيرة .

المقصد السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان ما جاء به من إصلاح البشر في جميع شؤونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الاساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للامة ، وشكله شوري، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشرعه، والامة هي التي تملك نصبه وعزله ، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٤٢ :٣٨ وأمرهم شورى بينهم) وقال لرسوله ﷺ (٣ :١٥٩ وشاورهم في الامر) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحربية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة(١)

وقال تعالى (٤ :٥٨ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأولوا الامر هم أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الامة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها (٨٣ وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يرد اليه واليهم في الشؤون العامة للأمة من الامن والخوف وغيرهما هم الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الاكثر وإن خالف رأيه كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو

(١) راجع ص ١٩٩ جزء رابع تفسير

الخروج إلى أحد للقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأي بعض كبار الامة الاول ورأي الجمهور الثاني فنفذ رأي الاكثر، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأي أبي بكر ، كما فصلناه في تفسير سورة الانفال

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥٨:٥) ماتدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر (١)

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الامة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بهما جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ،وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران. ومثل قوله تعالى (٩:٤٩ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وكذلك خطابه لهم في أحكام الاموال كالغنائم وتخميسها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بيناه هذا كله في مواضعه من التفسير)

وقد صرح كبار النظار من علماء الاصول بان السلطة في الاسلام للأمة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم اذا اقتضت المصلحة عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص. وقال في القيد الاخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الامة اذا عزلوا الامام لفسقه . قال العلامة السعد التفتازاني في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الاخير: وكأنه أراد بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الامة اه وقد فصلنا مسألة سلطة لامة في كتابنا (الخلافة أو الامامة العظمى)،

فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررها،

(١) راجع ص ١٨٠-٢٢٢ ج ٥ تفسير

القرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يقطع بأمر من أمور السياسة والادارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكانة في الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

وثم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الاول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته: أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فاذا استقمت فأعينوني ، واذا زغت فقوموني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) من رأى منكم في عوجا فليقوّمه . فقال له اعرابي لو رأينا فيك عوجا لقومناه بسيوفنا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أوقضاء من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رض) أمري لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر .

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الاسلام ادنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وان جهل ذلك من جهله من الفقهاء

ولكن ملوك المسلمين زاغوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلا منهم ، وشايعهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الاساسية لحكومة دينهم ، وكان من حسن حظ الافرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقتفي في حكمه أثر الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ماعسى ان أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما انا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك او عليك » ومعنى عبارة السلطان انه ليس إلا

منفذاً لحكم الشرع – كالشحنة وهو صاحب الشرطة – وأن القضاة مستقلون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ثم درسوا تاريخ الاسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الامة التي جاء بها الاسلام، وصاروا يدعونها لانفسهم، ويعيبون الحكومات الاسلامية باستبدادها، ثم بجعل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبداد والحكم الشخصي، وصار المسلمون يصدقونهم ويري المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم انه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم، فكان هذا من أسباب ضياع اعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه

(أصول التشريع في الاسلام)

المعروف عند جمهور أهل السنة ان أصول التشريع الاساسية أربعة (١) القرآن المجيد، والمشهور عند علماء الاصول ان آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته، وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات، والظاهر انهم يعنون الصريح منها وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكولة إلى عرف الناس واجتهادهم (٢) ماسنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان لكتاب الله تعالى وقالوا أيضا ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر (٣) إجماع الامة واتفق الائمة على الاحتجاج باجماع الصحابة في الدينيات، وفي إجماع المجتهدين بعدهم تفصيل (٤) اجتهاد الائمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيده آخرون كما فصلنا ذلك في تفسير آية (٥: ١٠١)

وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟» قال أقضي بما في كتاب الله، قال «فان لم يكن في كتاب الله؟» قال فبسنة رسول الله ﷺ قال «فان لم يكن في سنة رسول الله» قال أجتهد رأيي لا آلو. قال معاذ: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم

قال «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله(ص) رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شريح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول ـ وهو مختلف فيه ـ على النص.

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم . بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم « وإذا حاصرت أهل حصن فارادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة . وقال مثل ذلك في إنزالهم على ذمة الامير دون ذمة الله ورسوله لئلا يخفرها.

(قواعد الاجتهاد من النصوص)

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالاعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع، والاحكام الخاصة منها ماهو قطعي الرواية والدلالة لامجال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا لمانع شرعي من فوات شرط كدرء حد بشبهة أو عذر ضرورة، وقد أمر عمر (رض) في المجاعة ألا يحد سارق. ومنها ماهو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريبا في العبادات والمحرمات .

وأما القواعد العامة فهي ما تجب مراعاته في الاحكام المختلفة، وأهمها في الإسلام تحري الحق والعدل المطلق العام ، والمساواة في الحقوق والشهادات والاحكام، وتقرير المصالح ،ودرء المفاسد ، ومراعاة العرف بشرطه ، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات، وتقدير الضرورة بقدرها. ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، ونكتفي بالشواهد في العدل والظلم..

(نصوص القرآن في ايجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)

لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية . قال تعالى (١٦ : ٩٠ ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (٤ :٥٧ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال (٥ :١٣٥ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً)

أمر تعالى المؤمنين بالمبالغة في القيام بالقسط وهو العدل فان القوام (بتشديد الواو) صيغة مبالغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه ، وبأن تكون شهادتهم في المحاكمات وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا لمصلحة احد ، ولو كانت على انفسهم أو والديهم والاقربين منهم ، وأن لا يحابوا فيها غنياً لغناه تقرباً اليه او تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم او الشهادة كراهة ان لا يعدلوا فيهما لمراعاة من ذكر من الناس ، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو أعرضوا عنه

وقال تعالى (٥ :٨ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فهذه الآية متممة لما قبلها فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وهنا يأمر بالمساواة فيهما بين الانسان وأعدائه مهما يكن سبب عداوتهم لا فرق فيها بين ديني ودنيوي ، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار وقد قال (ولا يجرمنكم

شنآن قوم على أن لاتعدلوا) لايحملنكم بغضهم وعداوتهم لكم او بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة اقرب الى تقوى الله ، وأنذر تارك العدل للشنآن بمثل ما انذر به تاركه للمحاباة ، أنذر كلا منهما بأن الله خبير بما يعمله لايخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه او يعاقبه على مايعلم من امره

فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ : ١٧ الله الذي انزل الكتاب بالحق والميزان) وقوله (٥٧: ٢٥ لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس) الآية : فخير الناس من يصدهم عن الظلم والعدوان هداية القرآن ، ويليهم من يصدهم العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرهم من لا علاج له إلا السيف والسنان ، وهو المراد بالحديد

فقوام صلاح العالم بالايمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المفاسد فيجتنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما ، وبالعدل في الاحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه . فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن اسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وان الجزاء عليه فيهما اثر لازم له لزوم المعلول للعلة والمسبب للسبب ، وان الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك احداً) ومن اثره وعاقبته في الدنيا انه مهلك الامم ومخرب العمران . قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) اي ما كان من شأنه ولا من سنته في نظام الاجتماع ان يهلك الامم بظلم منه لهم ، او بشرك به يقع منهم ، وهم مصلحون في سيرتهم وأعمالهم ، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال (وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) وقال في الاحكام (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون) ورد هذا في حكم القصاص ،

(قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات)

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والوفاء بالعهود والعقود ، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والاحسان ، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود والعقود والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت وشره التجارة بالدين والخرافات . وسيأتي الكلام في الاصلاح الحربي

والعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ، فهل كانت بوحي نبع بعد الكهولة من نفسه ، أم هو كما بلغنا وحي من ربه ؟

المقصد السابع من فقه القرآن

(الارشاد إلى الاصلاح المالي)

(تمهيد) بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق التدين والايمان، والعمل والاذعان ، ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، وما يتعلق منه بالافراد ، وما يتعلق منه بوحدة الانسانية والاجناس ، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاسد الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كاله على ماتقدم كله وهي :— (١) طغيان الثروة ودولتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والاسرى وسلب حريتها، وهو الرق المذلق — ذلك بان جميع حظوظ الدنيا منوطة بها ، ولا يتم الاصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ،والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالاجمال ، مبتدئين بالمال ، والآيات فيه تدور على سبعة أقطاب ، فنقول :

(١ــ القاعدة العامة في المال كونه فتنة واختباراً في الخير والشر)

القاعدة الاساسية للقرآن فى المــال انه فتنة أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معايش ومصالح إذ هو الوسيلة إلى الاصلاح والافساد، والخير والشر ، والبر والفجور ، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه ، وكنزه واحتكاره ، وجعله دُولة بين الاغنياء ، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس

قال الله عز وجل (٣ : ١٨٦ لتبلون في أموالكم وأنفسكم) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده (٢٧ :٤٠ هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر) الآية. وقال (٣٤ : ٣٧ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) الآية وقال [٣٠: ٣٩ وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون] وقال [٣: ١٤ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة] الآية وقال تعالى [٨ : ٢٨ واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم] ومثلها في سورة التغابن [٦٤ : ١٥] ويليها الترغيب في الانفاق وقصر الفلاح على الوقاية من شح النفس . وقال تعالى [١٨ : ٤٦ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا] انظر هذا مع قوله تعالى في اول هذه السورة وهي الكهف [٧ إنا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملا] والمراد من العمل مايتعلق بما على الارض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه لله بشكره، ثم ماضرب به من المثل بصاحبي الجنتين ، والمثل للحياة الدنيا بنبات الارض .

وقال تعالى في تعليل قسمة الفيء بين مستحقيه [٥٩ : ٧ كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم] والدولة بضم الدال المال المتداول أي لئلا يكون المال محصوراً

في الاغنياء متداولا بينهم وحدهم . وقال تعالى [٩: ٣٤ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم] والشاهد في الكنز وهو المنع من التداول الذي يكون به المال نافعاً للناس

والشواهد في فتنة المال في القرآن كثيرة تجد الكلام عليها في مواضع من هذا التفسير ولا سيما الجزء العاشر منه[١]

فمن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال والشقاء بمنعه ماهو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله [٢ ، ١٩٥ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة] الآية (٢) أي ان منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وكذا قوله تعالى من سورة الليل [٩٢ ، ٦ فأما من أعطى واتقى ٧ وصدق بالحسنى ٨ فسنيسره لليسرى ٩ وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ١٠ فسنيسره للعسرى ١١ وما يغني عنه ماله إذا تردى] هذا تفصيل لقوله تعالى قبله (إن سعيكم لشتى) ومعناه بالاجمال والايجاز إن سعيكم في الكسب والانفاق مختلف مبدأ وصفة وغاية وثمرة ، فأما من أعطى ما عليه من الحقوق الشخصية والقومية (واتقى) سوء عاقبة منعها وضرره في الافراد وفي الامة (وصدق بالحسنى) وهي ما وعد الله من الجزاء على الاحسان بما هو أحسن منه من مضاعفة الثواب بمثل قوله (ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وهو شامل لجزاء الدنيا والآخرة — (فسنيسره) بمقتضى سنتنا في تأثير صفات النفس في الاعمال ، وتأثير الاعمال في الاحوال الخاصة والعامة (لليسرى) أي الخطة أو الطريقة الفضلى في اليسر والسهولة والمنفعة له وللناس فيحبه الناس ويحبه الله (وأما من بخل) بما عليه من هذه الحقوق (واستغنى) بماله عن حب الناس وحمدهم ، وعن حب الله ومثوبته (وكذب بالحسنى) التي بيناها آنفاً بعدم طلبها وتحريها بالاعطاء والانفاق ، وإن اعترف بها باللسان ، (فسنيسره) بمقتضى سنتنا المبينة آنفا للعسرى من الخطتين ، وسوءى الطريقتين ، فيكون سبباً لعسر البشر وعدواً لهم ولربهم ، ويكون له شر الجزاء منهم ومنه عز وجل في الدارين .

ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي :

(١) راجع في الفهرس كلمة المال فتنته (٢) ص ٢٠٩ ج ٢ تفسير .

(٢ ـ الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة الفلق [كلا إن الانسان ليطغى أن رآه استغنى] أي حقاً ان الانسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام من أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك. ومثلها سورة [تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب] الخ ومثلها سورة الهمزة [الذي جمع ما لا وعدده * يحسب أن ماله أخلده] نزلت في الوليد وأمية بن خلف وكذا قوله تعالى [ذرني ومن خلقت وحيدا * وجعلت له مالا ممدودا * وبنين شهودا * ومهدت له تمهيدا * ثم يطمع أن أزيد * كلا انه كان لآياتنا عنيدا * سأرهقه صعودا] الخ الآيات. وقد نزلت في الوليد ابن المغيرة وكذا آيات سورة [ن] من قوله [ولا تطع كل حلاف مهين ـ إلى قوله ـ أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الاولين] وكان هؤلاء أغنى زعماء قريش الذين عادوا النبي ﷺ واستكبروا عن اتباعه بغناهم وقال تعالى فيهم (٨ : ٣٦ ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون) وفيهم وفي أمثالهم من مترفي أقوام الانبياء نزل قوله تعالى [وقالوا نحن اكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين] ومعنى الآيات عام في جميع الاقوام والاديان

ومن الآيات العامة في غريزة البشر قوله تعالى (٤ : ١٢٨ وأحضرت الانفس الشح) وقوله من سورة المعارج (ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا) الخير المال الكثير وأكثر الاغنياء مناعون للمال الا من استثنى الله بعد هذه الآيات بقوله (إلا المصلين) الخ

بمثل هذه الآيات ينفر الزهاد الناس عن المال والدنيا فيما لعون ، وإنما المذموم الغرور والطغيان والبطر والاستكبار عن الحق افتتانا بالمال ، ولذلك قرنه في بعض الآيات بالاولاد ، وكذا البخل به والشح وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت ، وشواهده في آيات القطب الثالث وهي :

(٣ — ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه)

قال تعالى (٣:١٨٠ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم، سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة)وقال في سياق الترغيب في الانفاق في سبيل الله من طيبات الكسب والاخلاص فيه والنهي عن الرياء والمن والاذى فيه (٢ : ٢٦٠ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) الآية . فسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان يصدكم عن الانفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره . وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربي واليتامى والمساكين والجيران(٤ : ٣٥ والله لا يحب كل مختال فخور ٣٦ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل)وقال فيمن عاهد الله لئن آتاه من فضله مالا وخيراً ليصدقن منه(٩: ٧٧ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ٧٨ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون) وقال [٤٧، ٣٨ ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم] أي وإن تتولوا عن الانفاق في سبيل الله يهلككم بزوال دولتكم ويستبدل بكم قوما آخرين ينفقون أموالهم في المصلحة العامة من الدفاع عن الملة، وإقامة الحق والعدل في الامة. وقال تعالى(٤، ١٩ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم) وقال (٢، ١٨٨ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون) وقال في اليهود(٤، ١٦١ وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل)وقال (٩، ٣٤ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ٣٥ يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)

(٤ـ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الايمان والعمل الصالح)

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه [فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سورته [١١:٥٢] بل قال تعالى في بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه [٢٠:١٢٢ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ، فاما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ١٢٣ ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا] الآيات. فجزاء اتباع هداية الدين الحفظ من شقاء الدنيا والفوز بنعمة المعيشة الراضية فيها ، وجزاء من أعرض عنها الشقاء ومعيشة الضنك فيها . وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن [٧٢:١٣ وانا لما سمعنا الهدى آمنا به، فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقا] أي لا يهضم حقه ، ولا يظلم بذلّ يرهقه ، لان عزة الايمان تمنعه وتحفظه ، وهذا يشمل الدنيا والآخرة ، ثم قال في أمر الدنيا منها [١٦ وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماءاً غدقا ١٧ لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا] أي شديد المشقة

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الامر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٩: ٢٨ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان ينفقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغنائمه (١ وكذا قوله للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر [٨:٧٠ إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيرا مما أخذ منكم] وكذلك كان ، فقد أغنى الله العرب الفقراء بالاسلام ، فجعلهم أغنى الامم والاقوام [٢]

وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بقوله (ووجدك عائلا فأغنى) وامتن

(١) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٢) راجع ص ١٠٠ منه

على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك ، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وانه لحب الخير لشديد) وقال (٢ : ١٨٠ إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين) الآية

وإنما كان المؤمنون المتقون لله الشاكرون لنعمه أحق بنعم الدنيا من الكافرين لنعمه والفاسقين الظالمين ، لانهم أحق وأجدر بالشكر عليها ، والشكر استعمال النعمة في الحكمة التي منحت لاجلها من الحق والعدل والاحسان والبر والعمران وهو الذي يرضي الله تعالى فيها ، ومن سننه تعالى فيها ان الشكر لها بهذا المعنى سبب للمزيد منها ، وان الكفر لها بسوء استعمالها سبب لسلبها أو سلب فوائدها كما قال تعالى [١٤ ، ٧ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد) وقوله [٨ ، ٥٣ ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم]

فالمؤمنون والكافرون يشتركون في أسباب سعة الرزق وكسب المال من زراعة وصناعة وتجارة ، لان هذه الاسباب دنيوية لا تختلف باختلاف الاديان كما قال تعالى [١٧ ، ٢٠ كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا] أي ما كان ممنوعا عمن يريد به لذات العاجلة ، ولا عمن يريد به سعادة الآخرة . وانما يفضل بعضهم بعضا في استعمال المال ، فاستعماله في الفسق والشر والظلم والسرف والخيلاء كفر للنعمة وسبب لمحقها نفسها أو محق بركتها ، وكثرة الضرر والفساد المترتب عليها . فمن المشاهد أن أكثر الاغنياء المسرفين الفاسقين يفتقرون أو يصابون بالأدواء المنغصة ، وأما الامم المترفة المسرفة الظالمة فتضعف وقد تفقد استقلالها . واستعماله في البر والخير سبب للمزيد فيها . وقد حققنا هذا الموضوع في مواضع أخرى . ومنه قوله تعالى في الزينة والطيبات من الرزق [٧ : ٣٢ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة] أي هي لهم في الدنيا بالاستحقاق ، ويشاركهم فيها غيرهم بمقتضى الاسباب ، ولكنها تكون في الآخرة خالصة لهم [١] لانهم يتوسلون بالشكر لله عليها الى سعادة الآخرة الكاملة الدائمة ، ولولا ذلك لجعل

(١) راجع تفسيرها في (ص ٣٩٠ ج ٨ تفسير)

زينة الدنيا خاصة بالكافرين كما قال (٤ : ٣٣ ولولا ن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون) الآيات

﴿ ٥ — ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه ﴾

قال تعالى (٤:٥ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما) قيام الشيء وقوامه (بالكسر والفتح) مايستقيم به ويحفظ ويثبت ، أي جعلها قوام معايشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبذرون لها لصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم (وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا (٦) وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح فان آنستم منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم) الآية . فأمر باختبارهم وألا تدفع اليهم أموالهم إلا بعد ظهور الرشد في أعمالهم وهو الصلاح والاستقامة في معاملتهم لئلا يضيعوا الاموال فيما يضر او فيما لاينفع

وقال تعالى في صفات المؤمنين (٢٥:٦٧ والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما) الاسراف التبذير والافراط ، والقتر والقتور والاقتار الاقلال والتضييق في النفقة ، يقال قتر على عياله ، ومثله قدر له بالدال مكان التاء ومنه (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له)

وقال تعالى (٦٥:٧ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) وهذا في النفقة على المرأة المطلقة في العدة . وقال في النفقات العامة (٢ : ٢ ومما رزقناهم ينفقون) ومن للتبعيض فكل من الغني ذي السعة والفقير ذي المسرة مأمور بان ينفق مما آتاه الله لا كل ما آتاه الله ، وهذا أعظم أصول الاقتصاد ، فمن أنفق بعض مايكتسب قلما يفتقر. وتقدم في الكلام على الحكمة من وصايا سورة الاسراء من هذا البحث ذكر آيات النهي عن التبذير والمبالغة في بسط اليد والمبالغة في قبضها وما لكل منهما من سوء العاقبة

(٦ — إنفاق المـال في سبيل الله آية الايمان)

(والوسيلة لحيـاة الامة وعزة الدولة وسعادة الانسان)

هذا هو القطب الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله وسائل له ،وما بعده بيان للعمل به، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترن بالاذعان ، المبني على اساس الايمان ، وأن دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الاسلام تقبل مطلقا لان احكامه العملية تبنى على الظواهر ، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرائر ، وعليها مدار الجزاء في اليوم الآخر، فالاسلام عمل قد يكون صوريا غير صادر عن إخلاص وإذعان ، والايمان يقين قلبي يستلزم اعمال الاسـلام ، ولكن الاسلام الصوري الصادر عن استحسان لا عن نفاق يكون اقرب الوسائل إلى يقين الايمان، والاصل في هذه المسألة قول الله عز وجل (٤٩ : ١٤ قالت الأعراب[1] آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لايلتكم من أعمالكم شيئا ، إن الله غفور رحيم ١٥ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أولئك هم الصادقون) فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان وصدق مدعيه

ويلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بان بذل المـال على حبه بالاختيار، أول آيات الايمان، ويليه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة التي يجبيها إمام المسلمين وسلطانهم بالالزام ، ويليهما سائر أمهـات الفضائل ومعالي الاخلاق ، وهي قوله تعـالى (٢:١٧٧ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة

---

١) الاعراب اسم لسكان البوادي دون سكان المدائن والقرى والآيات نزلت في قبيلة بني أسد أسلموا في قحط ومجاعة ليتصدق عليهم المسلمون ثم حسن إسلامهم

والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون) وفي قوله تعالى (وآتى المال على حبه) قولان احدهما اعطى المال وبذله على حبه إياه كقوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) والثاني ان الضمير في حبه لله تعالى كقوله (ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً) أي حب الله تعالى . وتجد بيان الذروة العليا من تفضيل حب الله ورسوله على المال وغيره من متاع الدنيا في قوله تعالى (٩: ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها احب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لايهدي القوم الفاسقين)

ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى (٤ : ٩٥ لايستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى) اقرأ تتمة الآية وما بعدها . وقال تعالى (٥٧: ١٠ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والارض، لايستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا ، وكلاً وعد الله الحسنى)

والآيات في هذا الموضوع كثيرة ، ويراجع تفصيلها في تفسير الجزء الثاني والجزء العاشر وهذا الجزء [١١] من التفسير

ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه، وبيان آدابه ، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١ـ٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث

ثم راجع في فهرس الجزء العاشر كلمة (المال: الجهاد به اقوى آيات الايمان وقوام الدين والدولة) يرشدك الى عشر صفحات متفرقة فصلنا فيها هذه المسألة

ومن البلاء المبين ان نرى الشعوب الاسلامية في هذه القرون الاخيرة قد قصرت عن جميع الشعوب في بذل المال للجهاد في سبيل الله الذي يحفظ استقلالها

ويعتز به ملكهم، وتعلو به كلمة الله تعالى فيهم ثم في غيرهم ، وفي طرق البر التي ترتقي بها أمتهم ، وتكون حجة على سائر الامم في تفضيل دينهم على سائر الاديان ، وحاجة الامم اليه لانقاذ الحضارة من جشع عباد المال واستذلالهم للملايين من البشر به

﴿ ٧ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي في الاسلام ﴾

قد عقدت لتفسير قوله تعالى (٩ : ١٠٣ خـذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) فصلا « في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان » بينت فيه مكانة المال من حياة الناس ، وماله من التأثير في الثورات والحروب والسياسة والعمران ، وغلو بعض الجماعات في جمعه وادخاره وأنظمته واستغلاله ، واستعباد الالوف وألوف الالوف من البشر به ، ويدعون في عرف هذا العصر بالرأسماليين ، وقيام جماعات أخرى بالدعوة إلى إبطال النظام الدولي العام في البشر ووضع نظام آخر لاشتراك جميع الناس فيه ويلقبون بالبلشفيين ، ومابين هذين الفريقين من الجماعات من التعادي والخصام

ثم بينت ان هذه الفتن وما تنذر العالم به من الخراب والدمار لاعلاج لها إلا باتباع هداية الاسلام في الاصلاح المالي ، ولخصت أصول هذا الاصلاح في ربعة عشر أصلا هي (١) اقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل (٢) تحريم الربا والقمار (٣) منع جعل المال دولة بين الاغنياء (٤) الحجر على السفهاء في اموالهم حتى لايضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم (٥) فرض الزكاة في أول الاسلام وجعلها اشتراكية باعثها الوجدان لا إكراه الحكام ، وانما تكون كذلك حيث لاحكومة ولا دولة للاسلام (٦) نسخها بعد وجود الدولة والحكومة بالزكاة المحدودة بربع العشر في النقدين والتجارة في كل عام مادام النصاب تاما ، وبالعشر و نصف العشر في غلات الزراعة التي عليها مدار الاقوات أو مطلقا ، وزكاة الا نعام المعروفة ، وفاتني هنالك ذكر الخمس في الركاز وهو ماينبش من المال المكنوز القديم والمعدن (٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة (٨) إيجاب كفاية المضطر من كل

جنس ودين وضيافة الغرباء (٩) بذل المال في كفارات بعض الذنوب (١٠) ندب صدقات التطوع المحتاجين (١١) ذم الاسراف والتبذير والبخل والتقتير (١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرطهما (١٣) مدح القصد والاعتدال (١٤) تفضيل الغني الشاكر على الفقير الصابر » اه باختصار (ص — ٢٧ — ٣١ ج ١١ تفسير)

وكنت قد شرحت قبله مصارف الزكاة في تفسير آيتها (٨:٦٠ انما الصدقات للفقراء والمساكين) الخ وهو في صفحة ٤٨٩ — ٥١٥ من الجزء العاشر

ثم عقدت فصلا آخر في خلاصة السورة (وهي سورة التوبة) المشتملة على هذه الآيات في أحكام الاموال في الاسلام يدخل في ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال (٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد إصلاح الاسلام المالي للبشر (ص ١١٩ ج ١١) فالرجوع إلى هذه المباحث في هـذا الجزء من التفسير يغنينا عن إعادتها هنا

وخلاصة القول في هذه القواعد العلمية في إصلاح ثروة البشر وجعلها خيراً عاما كما سماها الله تعالى في كتابه ، واتقاء شرور التنازع عليها بالوازع الديني والتشريع الدولي، أنها هي التي يصلح بها أمر البشر على اختلاف أحوالهم واستعدادهم، فيكونون سعداء في دنياهم وفي دينهم ، ولن تجد مثلها في دين من الاديان ولا شيء من كتب القوانين والحكمة البشرية ، وان البشر على خطر عظيم مما سقطوا فيه من التعادي على المال حتى أعيتهم الحيل ، وسبيل النجاة ممهدة معبدة أمامهم وهم لا يبصرونها وهي الاسلام وهداية القرآن (٢:٢٥١ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين)

وموضوع بحثنا في هذا الاستطراد وهو دلائل الوحي المحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الامي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بوحي من نفسه لنفسه إلى هذه الحقائق التي فاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين ؟ وانما المعقول عند من يؤمن بان للعالم ربا حكيما رحيما مدبرا ان يكون هذا بوحي منه عز وجل أفاضه على خاتم النبيين عند استعداد البشر له فلا يحتاجون بعده إلى وحي آخر

المقصد الثامن من فقه القرآن

﴿ اصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير للبشر ﴾

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة ، وإفضاء التنازع الى التعادي والاقتتال بين الجماعات والاقوام، سنة من سنن الاجتماع ، أو ضرورة من ضروراته، قد تكون وسيلة من وسائل العمران، فان كان التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق ، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم ، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام ، وإن كان بين الصلاح والفساد كان الغلب للصلاح ، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١ : ١٨ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه لهما (١٣ : ١٧ فأما الزبد فيذهب جفاء [1] وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

وأما التنازع والتعادي والتقاتل على الشهوات الباطلة ، والسلطة الظالمة ، واستعباد القوي للضعيف، والاستكبار والعلو في الارض ، فان ضرره كبير ، وشره مستطير ، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء ، ويورثهم الحقد ويؤرث بينهم العداوة والبغضاء ، وقد اشتدت هذه المفاسد في هذا الزمان ، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير ، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير ، كالغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تقذفها الطيارات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالالوف من الرجال والنساء والاطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

---

١) الزبد بالتحريك ما يكون في أعلى السيل أو القدر التي تفور من الغثاء والرغوة : والجفاء بالضم ما يقذفه الوادي أو القدر من جوانبه عند امتلائه من ذلك وهو ما لا نفع فيه، وأما إبليز السيل الذي يرسب منه وإبريز الصائغ من الذهب الذي توقد النار عليه لتصفيته وهو النافع للناس فيمكث في الارض ويبقى في بوط الصائغ « بوتقته »

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر حتى ان أشدهن استعداداً للحرب بالاساطيل الهوائية والبحرية وآلات التدمير وكثرة الاموال لأشدهن خوفا على حياة أمتها المستعدة لجميع أنواع القتال، وعمران بلادها المحصنة بأحدث وسائل الوقاية، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام، ودرء مفاسد الخصام، بمعاهدات يعقدونها، وأيمان يتقاسمونها، ثم ينقضون خائنين، أو ينقضون ما أبرموا متأولين، ويعودون إلى مثله مخادعين

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عهدهم، كأنه نزل في هؤلاء الافرنج دون غيرهم، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه. وذلك قوله تعالى بعد الامر بالايفاء بعهده، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كالمرأة الحمقاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرة) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم (والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه) لاجل ان تكون أمة أربى ازيد رجالا، وأكثر ربحا ومالا، وأقوى اسنة ونصالا من أمة

والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصد بها الاصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به أن تكون أمة هي أربى نفعا وأكثر عدداً وجمعا من الامة الاخرى.

ولو طلبوا المخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما في دين الاسلام، فهو هو دين الحق والعدل والسلام، وهاك بعض الشواهد على هذا من قواعد الحرب والسلم في آيات القرآن.

﴿أهم قواعد الحرب والسلام في دين الاسلام والشواهد عليها من آيات القرآن﴾

قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة (ص١٣٩ ـ ١٤٤ من جزء التفسير العاشر) وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام و٢٠ حكما من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة(*) نكتفي هنا ببضع قواعد منهما ومن غيرهما من السور، لان المقام مقام إيراد الشواهد المجملة على أنواع الاصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال به على ان جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد، إلا قليلا من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب. وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية، وكتب الحكمة والقوانين البشرية، فنقول:

(القاعدة الاولى في الحرب المفروضة شرعا)

ورد الامر بقتال المعتدين لما سيأتي من درء المفاسد وتوطيد المصالح مقترنا بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم، والشاهد عليه قوله تعالى [٢ : ١٩٠ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين] وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للنسخ، ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان، ثم فصلت في تفسير آية السيف من سورة التوبه أن قتال مشركي العرب ونبذ عهودهم بعد فتح مكة كان جاريا على هذه القاعدة، مع كون سياسة الاسلام في

(*) تراجع في ص ١٢٣ — ١٢٨ ج ١٠ من التفسير

العرب غير سياسته في سائر الاقوام من حيث إرادة إسلامهم وابطال ما كانوا عليه من الشرك غير المقيد بشرع متبع، وارادة جعل جزيرتهم معقلا للاسلام وحده على اتساع سياسته مع غيرهم باقرارهم على أوطانهم وأديانهم

وبينت فيه أن بعض الصحابة كان قد ثقل عليهم نبذ عهود المشركين مع سبقهم لنقض العهد مع النبي ﷺ حتى بين الله لهم ذلك بأنهم انما نقضوا عهده ونكثوا أيمانهم لانهم لا عهود لهم يلتزمونها بعقيدة وجدانية ولا نظام متبع، وقال (وهم بدءوكم أول مرة) أي بالقتال ثم بنقض العهد

وهذا الذي كان في آخر أحكام القتال معهم يؤيد ما نزل في أول الاذن للمسلمين بالقتال وهو قوله تعالى في سورة الحج (٢٢: ٣٩ أُذِن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإن الله على نصرهم لقدير ٤٠ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله) الآيات

(القاعدة الثانية في الغرض من الحرب ونتيجتها)

وهي أن تكون الغاية الايجابية من القتال — بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن — حماية الاديان كلها وعبادة المسلمين لله وحده ومصلحة البشر وإسداء الخير اليهم، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم، والشاهد الاول عليه قوله تعالى بعد ذلك الاذن [ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور]

ذكر في تعليل اذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور [أولها] كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم، ومخرجين نفيا من أوطانهم وأموالهم لاجل دينهم وإيمانهم، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني، أو الديني والدنيوي

وقد جعلنا هذه الغاية للقتال قاعدة مستقلة من قواعد سورة الانفال معبرين عنها « بحرية الدين ومنع فتون أحد واضطهاده لارجاعه عن دينه، واستدللنا عليها

بقوله تعالى (٨: ٣٩ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) وقد كان المشركون يضطهدون المسلمين بكل ما قدروا عليه من الايذاء والتعذيب لاجل ردهم عن دينهم ، وأما المسلمون فلم يفعلوا ذلك ، ومن عساه شذ عن ذلك قليلا فقد خالف دين الاسلام الذي حرم الفتنة وحرم الاكراه في الدين وشرع فيه الاختيار

[ثانيها] انه لولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصارى وصلوات اليهود. [كنائسهما] ومساجد المسلمين بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء ، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الاسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان.

(فان قيل) ولماذا لم يقر الاسلام المشركين على دينهم كما أقر اليهود والنصارى والمجوس ؟ (قلت) ان الشرك الذي كان عليه العرب لم يكن دينا مبنيا على عبادة الله ومصلحة عباده كسائر الاديان حتى التي خالطها الشرك ، فانهم لم يكونوا يؤمنون بالبعث والجزاء على الاعمال عند الله تعالى على قاعدة « إن خيراً فخير وإن شراً فشر » ولا كانوا يدينون الله تعالى بعمل الصالحات وتحريم المنكرات — وأصول الدين العامة قوله تعالى (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

[ثالثها] أن يكون غرضهم من التمكن في الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للانفس بنهيها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى ، والمربية للانفس على مراقبة الله وخشيته ومحبته — وايتاء الزكاة المصلحة للامور الاجتماعية والاقتصادية — والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس — والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضر يلحق صاحبه أو غيره من الناس

ان جميع الدول الحربية تدعي أمثال هذه المقاصد العالية في حروبها رياء وابتغاء لحسن السمعة ، ولكن أفعالها تكذب دعاويها كلها ، ولاسيما النهي عن المنكر فهي تبيح للناس الذين تمكنها القوة الحربية في بلادهم جميع المنكرات والفواحش التي تفسد الاخلاق والآداب وروابط الاجتماع ، بل تحول بينهم وبين العلم والتهذيب

والصلاح بقدر الطاقة، إلا تعليم لغاتها وتاريخ عظمتها وديانة شعبها ، لاجل هدم مقوماتهم الملية والقومية حتى لا يرجى لهم النجاة من رق الاستعمار وذله، لا ليكونوا مساوين للفاتح المستعمر في العلم والثروة والعزة والقوة ، كما هو معروف في جميع الممتلكات والمستعمرات الاوربية

(القاعدة الثالثة ايثار السلم على الحرب)

هذه القاعدة مبنية على القاعدتين اللتين قبلها اذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيها ماذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وان السلم هي الاصل التي يجب أن يكون عليها الناس ، فلهذا أمرنا الله بايثارها على الحرب اذا جنح العدو لها، ورضي بها ، والشاهد عليه قوله تعالى (٨ ، ٦١ وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) فراجع تفسيرها في ص ٦٩ و ١٤٠ من جزء التفسير العاشر

(القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لأجل الارهاب المانع منها)

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ورباط الخيل في كل زمان بحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة أو مصالحها ، أو على أفراد منها أو متاع لها حتى في غير بلادها ، لاجل أن تكون آمنة في عقر دارها ، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها ، وهذا ما يسمى في عرف هذا العصر بالسلم المسلحة أو التسليح السلمي ، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعا فتكذبها اعمالها ، ولكن الاسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله دينا مفروضاً ، فقيد به الامر باعداد القوى والمرابطة للقتال، وذلك قوله عز وجل (٨: ٦٠ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

(القاعدة الخامسة الرحمة في الحرب)

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر بالاثخان في الاعداء وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم فالله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل، ويكتفوا بالاسر ، ثم يخيرهم في الاسارى إما بالمن عليهم باطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤ فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآية وقد أوردناها وبينا معناها (في تفسير ٨، ٦٧ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الارض [1]) الآية

(القاعدة السادسة الوفاء بالمعاهدات وتحريم الخيانة فيها)

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرا او جهرا ، كتحريم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية من أحكام الاسلام القطعية، والآيات في ذلك متعددة محكمة لا تدع مجالا لاباحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ،

---

١) أذاع أعداء الاسلام فيما تجنوا به عليه ان معنى هذه الآية ان القرآن يأمر أتباعه أن يقتلوا الكفار حيثما لقوهم حتى: ان لورد كرومر الشهير الذي كان عميد الدولة البريطانية بمصر ذكر هذا في خطبة له . وانما الآية في لقاء الاعداء الحربيين في القتال ، والكفار في شرع الاسلام ثلاثة أصناف حربيون وتعرف أحكامهم من هذه القاعدة وما قبلها ــ ومعاهدون ويعرف بعض أحكامهم مما بعدها، ومنهم المستأمنون ، وذميون وهم الذين يدخلون في حكم المسلمين وقد تقدم ان الاسلام يسوي بينهم وبين المسلمين في جميع أحكامه القضائية والمدنية ويوجب حمايتهم والدفاع عنهم حتى بالقتال لمن يعتدي على دينهم أو أنفسهم أو أموالهم

وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة (منها) قوله تعالى(١٦ :٩١ وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها) الآية . جمع بين الامر بالايفاء بها والنهي عن نقضها ثم أكد ذلك بالمثل البليغ في قوله (٩٢ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها) وقد بيناه آنفا في مقدمة هذا المقصد . و (منها) أنه وصف المؤمنين الابرار بقوله في آية البر (٢:١٧٧ والموفون بعهدهم اذا عاهدوا) و(منها) أنه عاب اليهود الذين نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ وجعلهم من شر الدواب (٨:٥٥و٥٦) و (منها أنه لما أمر بنبذ عهود المشركين الذين نقضوا عهد النبي والمؤمنين استثنى منهم على كونهم أهل دار واحدة فقال(٩:٤ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتموا اليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) ثم قال (كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين) وبلغ من تأكيد الوفاء بالعهود ان الله تعالى لم يبح لنا أن ننصر اخواننا المسلمين غير الخاضعين لحكمنا على المعاهدين لنا من الكفار كما قال في آية (٨:٧٢وان استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق)[١]

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لا علة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٩:٢٩حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) مانصه :

هذه غاية للأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها اذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود مايقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان

(١) راجع تفسيرها في صفحة ١٠٨ ج ١٠ تفسير

سبباً لغزوة تبوك،حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما ، فالقيد الاول لهم وهو أن تكون صادرة عن يد أي قدرة وسعة ، فلا يظلمون ولا يرهقون ، والثاني لكم وهو الصغار المراد به خضد شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم ، وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الاسلام بما يرونه من عدلكم وهدايتكم وفضائلكم، التي يرونكم بها أقرب إلى هداية أنبيائهم منهم، فان أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد ، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة في العدل ولم يكونوا حائلا دونهما في دار الاسلام . والقتال لما دون هذه الاسباب التي يكون بها وجوبه عينياً أولى بأن ينتهي باعطاء الجزية ، ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وحريتهم في دينهم بالشروط التي تعقد بها الجزية ، ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين ، ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم مالا يطيقون كالمسلمين ، ويسمون أهل الذمة لان كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله ﷺ وأما الذين يعقد الصلح بيننا وبينهم بعهد وميثاق يعترف به كل منا ومنهم باستقلال الآخر فيسمون بأهل العهد والمعاهدين ، وتقدم بيان ذلك في تفسير سورة الانفال (١)

هذا ـ وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التي يرهقونهم بها ؛ وإنما هي جزاء قليل على ماتلتزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنعهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعدلهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفاً

(١) راجع القواعد ٦ ـ ٩ ص ١٤٠ و ١٤١ ج ١٠ تفسير وماتحيل عليه من الآيات

(منها) ما كتبه خالد بن الوليد رضي الله عنه لصلوبا بن نسطونا حينما دخل الفرات وهو : هـذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه اني عاهدتكم على الجزية والمنعة ، فلك الذمة والمنعة ، وما منعناكم فلنا الجزية وإلا فلا . وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر » انتهى وهو صريح في أن الجزية جزاء على المنعة والحماية تدوم بدوامها، وتمتنع بزوالها .

ويؤيده بالعمل ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان والازدي في فتوح الشام من رد الصحابة (رض) لما كانوا أخذوه من أهل حمص من الجزية حين اضطروا الى تركهم لحضور وقعة اليرموك بأمر أبي عبيدة (رض) وقد صرحوا لهم أنهم قد أخذوها جزاء منعتهم فوجب ردها للعجز عن هذه المنعة . فعجب أهل حمص : نصاراهم ويهودهم أشد العجب من رد الفاتحين أموالهم اليهم ودعوا لهم بالنصر على الروم

فظهر بما ذكرنا ان الاسلام حرم حرب الاعتداء والظلم وقصر حرب الدفاع على دفع المفاسد وتقرير المصالح العامة للبشر فجعلها ضرورة تقدر بقدرها، وأن السلام الصحيح الشريف لا يمكن تمتع العالم به إلا بهداية الاسلام ووضع قوانين الحرب على قواعده

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الاديان، ولا قانون دولي، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل. أفليس هذا وحده دليلا واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر عليم حكيم، بان محمداً العربي الامي قد استمدها بوحي منه عز وجل ، وان عقله وذكاءه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي؟ فكيف إذا أضفنا اليها ماتقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والانباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟

المقصد التاسع من مقاصد القرآن

﴿ إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية ﴾

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتهنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الاسلام ، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء بكتابه الذي انزله عليه ، وبسنته التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل ، جميع الحقوق التي اعطاها للرجال ، إلا ما تقتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الاحكام ، مع مراعاة تكريمها والرحمة بها والعطف عليها ، حتى كان النبي ﷺ يقول «ما أكرم النساء إلا كريم ، ولا أهانهن إلا لئيم» رواه ابن عساكر من حديث علي (ع.م)

كان كبار العقول من الصحابة (رض) يرون ما أصلحه الاسلام من فساد وظلم ورذيلة في الامة العربية فيكبرونه إكبارا ويعدونه من دلائل نبوة محمد ﷺ إذ لم يكن يمتاز عليهم قبل النبوة بشيء من العلم ولا البلاغة ، بل بالاخلاق وسلامة الفطرة فقط ، ولذلك كان عمر بن الخطاب المصلح الكبير والمنفذ الاكبر لسياسة الاسلام وهدي محمد ﷺ من بعده في الفتوح والعدل وإدارة شؤون الشعوب يقول : إن الذي ينقض الاسلام عروة عروة هو أن نجهل او ننسى ما كنا عليه في الجاهلية ، ولو كان رضي الله عنه واقفا على تواريخ الامم والشعوب لعلم أن ماجاء به الاسلام انما هو إصلاح لشؤون البشر كافة ، وثنيهم وكتابيهم ، همجيهم وحضريهم ، لا في شيء واحد بل في كل شيء ، وانني أشير هنا الى أهم أصول الاصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسيط في حقوق النساء في الاسلام بينت في مقدمته حالهن قبل البعثة المحمدية عند أمم الارض اجمالا بقولي :

« كانت المرأة تشترى وتباع ، كالبهيمة والمتاع ، وكانت تكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تملَك ولا تملِك ، وكان اكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون للزوج

الحق في التصرف بمالها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها انسانا ذا نفس وروح خالدة كالرجل ام لا؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة ام لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لا روح له ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة وأن يكم فمها كالبعير والكلب العقور لمنعها من الضحك والكلام ، لانها احبولة الشيطان ، وكانت اعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته ، وكان بعض العرب يرون ان للاب الحق في قتل بنته بل في وأدها «دفنها حية» ايضاً . وكان منهم من يرى انه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الاسلام مانصه

«قد أبطل الاسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبداد ازواج المتزوجات منهن بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بانواعه والتصرف بانواعه المشروعة ، فشرع الوصية والارث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة ، وان المرأة الفرنسية لا تزال إلى اليوم مقيدة بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية»

واني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالايجاز

(١) كان بعض البشر من الافرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الاعجم أو من الشياطين لا من نوع الانسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم قول الله تعالى (ياأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية وقوله (خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وما في معناهما

(٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون ان المرأة لا يصح أن يكون لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام يخاطب بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، والآيات في ذلك معروفة .

كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجه خديجة بنت خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص القرآن ثم بايع الرجال بما جاء فيها ـ ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعا رسمياً وضع عند امرأة هي حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الاول أبي بكر الصديق الى عهد الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الامصار لاجل النسخ عنها والاعتماد عليها.

(٣) كان بعض البشر يزعمون ان المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة — وهذا الزعم أصل لعدم تدينها — فنزل القرآن يقول (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) ويقول (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر او أنثى بعضكم من بعض) الآية وفيها الوعد الصريح بدخولهم جنات تجري من تحتها الانهار .

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلا للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الادبية ، ولا في غيرهما من الامور الاجتماعية والسياسية والارشادات الاصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم) فأثبت للمؤمنات الولاية المطلقة مع المؤمنين ،وتدخل فيها ولاية النصرة في الحرب ولكن الشرع أسقط عنهن فريضة القتال فكان حظهن من النصرة تهيئة الطعام والشراب للمقاتلين ومداواة جرحاهم ، وكن يصلين الجماعة مع الرجال ويحججن معهم ويأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر حتى إن بعضهن كن ينكرن على عمر بن الخطاب قوله جهراً فيرجع عنه اذا كان خطأ ، وهو الذي كان يهابه الرجال كالنساء

وقد قفى الله تعالى على هذه الآية بأعظم آية في جزاء الفريقين جمعت بين بيان النعيم الجثماني والنعيم الروحاني وهي(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري

من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم)

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره التملك وبعضهم يضيق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم وأثبت لهن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا) وقال (للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)

ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وإن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بارادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائيه ، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرنا ونصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضربا من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينياً مدنياً لقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والالفة بين العشيرتين واكمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد اليه قوله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات (ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فجعل من واجبات هذه القيامه على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلا مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى اذا لم يذكر فيه لزمه فيه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ، ولهما أن يؤجلا بعضه بالتراضي ، على حين

ىرى بقية الامم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل

وكان أولياء المرأة يجبرونها على التزوج بمن تكره او يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها فحرم الاسلام ذلك ، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الازواج ماشاؤا غير مقيدين بعدد ، ولا مشترط عليهم فيه العدل، فقيدهم الاسلام بان لا يزيدوا على أربع ، وان من خاف على نفسه ان لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة ، وانما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع في أحوال: منها ان تكون الاولى عقيما أو تدخل في سن اليأس من الحمل او تكون ذات مرض مانع منه أو من إحصان الرجل ، وقد يكون التعدد من مصالح النساء خاصة اذا كثرن في أمة او قبيلة كما يكون في أعقاب الحروب أو هجرة كثير من الرجال لاجل الكسب.

وناهيك بأمة تحرم شريعتها الزنا وتعاقب عليه ، فهل من مصلحة النساء أو الانسانية أن تبقى النساء الزائدات على عدد الرجال محرومات من الحياة الزوجية وحصانتها وكفالة الازواج ومن نعمة الامومة ؟ وهل من المصلحة او المنفعة العامة أو الخاصة أن يباح لهن الزنا وما يترتب عليه من المصائب البدنية والاجتماعية التي نراهن مرهقات برجسها في بلاد الافرنج والبلاد التي ابتليت بسيطرتهم او تقليدهم ؟

وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الاسلام) ماهو مقنع لكل عاقل منصف بان ماشرعه الاسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية اذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند أهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون ، وكان الافرنج يحرمونه

ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فاسرفوا فيه اسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية وانحلال روابط الاسرة والعشيرة، ومما نقلته الصحف من أسباب حكم القضاة بالطلاق عندهم مسائل شعر رأس المرأة ووجه الرجل في ارساله أو قصه وحلقه ، وشكوى المرأة من اشتغال الرجل عنها بمطالعته الكتب أو الصحف في الدار ، وشكوى الرجل من كثرة كلام المرأة حتى بالمسرة (التلفون) !!!

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجل ويتبعه حق الطلاق لانهم احرص على بقاء الزوجية بما تكلفهم من النفقات في عقدها وحلها وكونهم اثبت من النساء جأشا واشد صبرا على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على مايكرهون من نسائهم فقال(وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) على ان الشريعة تعطي المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها تطلق نفسها اذا شاءت واعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية او المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة . وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الاحكام التي بيناها في تفسير الآيات المنزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، واكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ، ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الارحام ،بل جعل لكل امرأة قيما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولي من أقاربها وجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها

وجملة القول انه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم اعطى النساء ماأعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العليم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الامي المبعوث في الاميين؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين المبرهنين ، والحمد لله رب العالمين

المقصد العاشر من فقه القرآن تحرير الرقبة

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالنمل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فانها تأسر ماسلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المؤونة وخزنها في مخازنها وغير ذلك

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمنتهى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرقيق مشروعا عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة باتخاذ الوسائل لمنعه من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصاً لمصلحة البشر وجنوحا للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتغلب على الجنس الاحمر الوطني الاصلي بما يقرب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما ان انكلترة تحتقر الهنود وتستذلهم ، ولكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ، وطأمنت من إشناق كبريائهم .

فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من فساد الامم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الاحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذراً في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين: ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الارقاء المستعبدين

فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض يلتمس وسيلة الرزق فلا يجدها فيحور الى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان وكذلك جرى في السودان المصري ، فقد جرب الحكام من الانكليز أن يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستقلين فيه مكتفين به فلم يمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة بشرط أن لاتسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

هداية الاسلام في تحرير الرقيق وأحكامه

قد شرع الله تعالى لابطال الرق طريقتين: عدم تجديد الاسترقاق في المستقبل، وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذي لاضرر ولا ضرار فيه

(الطريقة الأولى) منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء للضعفاء إلا استرقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه من دفع المفاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة [1] وهي شروط لم تكن قبله مشروعة عند المليين، ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين الذين لاشرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في إمضائه أو إبطاله بأن خيرهم في أسرى الحرب الشرعية بين المنّ عليهم بالحرية والفداء بهم، وهو نوعان فداء المال وفداء الانفس، اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه في قواعد الحرب (فشدُّوا الوَثاقَ فاما منا بعدُ وإما فداء) [2] ولما كنا مخيرين فيهم بين إطلاقهم بغير مقابل والفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لابطال استئناف الاسترقاق في الاسلام، فان ظاهر التخيير بين هذين الامرين ان الامر الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز، لو لم يعارضه أنه هو الاصل المتبع عند جميع الامم، فمن أكبر المفاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن ارحم بهم واعدل كما يعلم مما يأتي. ولكن الآية ليست نصا في الحصر، ولاصريحة في النهي عن الاصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية، فبقي حكمه محل اجتهاد أولي الامر، اذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، واذا وجدوا المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو ابطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

وانما تكون مصلحة الاسترقاق أرجح من هاتين المصلحتين — أي المن على الاسرى والفداء بهم — في حالات قليلة لاتدوم كأن يكون المحاربون المسلمين.

---

(١) راجع المقصد الثامن من فقه القرآن ص ١٤٧-١٥٤ (٢) ص ١٥٣

قوما قليلي العدد كبعض قبائل البدو يقتل رجالهم كلهم أو جلهم فاذا ترك النساء والاطفال والضعفاء من الرجال لانفسهم لا يكون لهم قدرة على الاستقلال في حياتهم ،فيكون الخير لهم ان يكفلهم الغالبون ويقوموا بشؤونهم المعاشية ، ثم تجري عليهم أحكام الطريقة الثانية في تحريرهم ، وقد يتسرون بالنساء فيكن أمهات أولاد وربات بيوت حرائر ،أو محصنات من الفواحش مكفيات امر المعيشة على الاقل، وقد سن النبي ﷺ لأمته ترجيح المن على الاساري والسبايا بالعتق قولا وعملا في غزوة بني المصطلق وغزوة فتح مكة وغزوة حنين كما هو مفصل في كتب السيرة النبوية وغيرها إذ لم يكونوا أسروا من المسلمين احداً لان المسلمين قد أثخنوهم وظهروا عليهم،فعلم منها ان روح الشريعة الاسلامية ترجيح جانب الفضل والاحسان عند القدرة ، ومنه عتق الاسرى والسبايا والمن عليهم بالحرية بلا مقابل حاضر، ولا خوف مستقبل ، بل لمحض الاحسان

﴿ الطريقة الثانية ماشرعه لتحرير الرقيق الموجود وجوبا وندبا وهو أنواع ﴾

(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازبة وفيه عشر مسائل)

(١) الحرية في الاسلام هي الاصل في الانسان كما كتب أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب (رض) الى عامله على مصر عمرو بن العاص (وقد اشتكى عليه قبطي) ياعمرو منذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ وقد أخذ الفقهاء من هذا الاصل ان الرق لايثبت باقرار المرء على نفسه ، وجعلوا قول منكره راجحا على قول مدعيه فيكلف اثباته

(٢) ان الاسلام حرم استرقاق الاحرار من غير أسرى الحرب الشرعية العادلة بشروطها كما تقدم وجعل ذلك من أعظم الآثام . روى البخاري وغيره من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « قال الله تعالى ثلاث أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته : رجل أعطى بي ثم غدر ،ورجل باع حراً ثم أكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره ،وفي حديث الثلاثة الذي لا يقبل الله منهم صلاة « ورجل اعتبد محرراً » أي جعله كالعبد في

استخدامه كرها أو أنكر عتقه او كتمه ، وهو في سنن أبي داود وابن ماجه

(٣) شرع الله تعالى للمملوك أن يشتري نفسه من مالكه بمال يدفعه ولو أقساطا ويسمى هذا في الشرع الكتاب والمكاتبة وأصله قوله تعالى (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً و آتوهم من مال الله الذي آتاكم) أمر بمكاتبتهم ان علم المالك انهم يقدرون على الكسب والوفاء بما التزموه وانه خير لهم،وأمر باعانة المالك لمكاتبه على أداء ماباعه نفسه به ويدخل فيه الهبة وحط بعض الاقساط عنه ، وجعل في مال الزكاة المفروضة سهما تدخل فيه هذه الاعانة وندب غير المالك لذلك ايضا

ذهب بعض العلماء إلى ان الامرين في الآية للوجوب : الامر بالمكاتبة والامر بالاعانة عليها ، والاكثرون على ان الاول للندب والثاني للوجوب ، وفي صحيح البخاري بعد ذكر الآية : قال روح عن ابن جريج قلت لعطاء أواجب علي اذا علمت ان له (أي لمملوكه) مالا ان أكاتبه ؟ قال ماأراه الا واجبا . وقال عمرو ابن دينار قلت لعطاء أتأثره عن أحد ؟ قال لا ، ثم أخبرني ان موسى بن أنس أخبره ان سيرين [1] سأل أنساً المكاتبة وكان كثير المال فأبى فانطلق سيرين الى عمر فدعاه عمر فقال له كاتبه، فأبى فضربه بالدرة وتلا (فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيراً) فكاتبه اهـ

(٤) اذا خرج الارقاء من دار الكفر ودخلوا دار الاسلام يصيرون أحراراً وعلى الحكومة الاسلامية تنفيذ ذلك ومستنده في السنة معروف

(٥) ان من أعتق حصة له من عبد عتق كله عليه من ماله ان كان له مال، وان كان لغيره حصة فيه فله احكام، وفي ذلك أحاديث في الصحيحين وغيرهما منها حديث ابي هريرة ان النبي ﷺ قال « من أعتق نصيبا أو شقيصا في مملوك فخلاصه عليه في ماله إن كان له مال وإلا قوم عليه فاستسعى به غير مشقوق عليه » وحديث ابن عمر مرفوعا أيضا « من أعتق نصيبا له في مملوك أو شركا له في عبد فكان له من المال ما يبلغ قيمته بقيمة العدل فهو عتيق » والشقيص كالنصيب وزنا ومعنى

(٦) من عذب مملوكه أو مثل به أو خصاه عتق عليه فقد روى الامام احمد

---

(١) هو والد محمد بن سيرين التابعي المشهور

ان زنباعا أبا روح وجد غلاما له مع جارية له فجدع أنفه وجبه فشكاه الى النبي ﷺ فسأله فاعترف وذكر ذنبه فقال النبي ﷺ للغلام « اذهب فأنت حر » ويؤخذ منه ان الجب والخصاء حرام وموجب لعتق العبد وينفذه الحاكم فكل ما كان يتخذ من الخصيان المماليك ففيه مخالفة للشرع الاسلامي بخصائهم وعدم عتقهم

وفي رواية له (الامام أحمد) أخرجها ابو داود وابن ماجه جاء رجل الى النبي ﷺ صارخا فقال له « مالك ؟ قال سيدي رآني أقبل جارية له فجب مذاكيري . فقال النبي ﷺ « علي بالرجل » فطلب فلم يقدر عليه فقال ﷺ للغلام « اذهب فأنت حر » وفي جامع الاصول من حديث سمرة بن جندب وابي هريرة ان النبي ﷺ قال « من مثل بعبده عتق عليه »

(٧) ايذاء المملوك بما دون التمثيل والتعذيب الشديد حرام ولا كفارة لذنبه إلا عتقه فقد روى أحمد ومسلم وابو داود عن عبد الله بن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من لطم مملوكه او ضربه فكفارته ان يعتقه » وللشيخين والترمذي عن سويد بن مقرن قال : كنا بني مقرن على عهد رسول الله ﷺ ليس لنا إلا خادمة واحدة فلطمها أحدنا فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال « أعتقوها » وقيل لهم انه ليس لبني مقرن خادم غيرها فرخص لهم باستخدامها مادامت الحاجة واطلاقها اذا زالت .

وروى مسلم وغيره عن ابي مسعود البدري قال كنت أضرب غلاما بالسوط فسمعت صوتا من خلفي « إعلم أبا مسعود » فلم أفهم الصوت من الغضب ، قال فلما دنا مني اذا هو رسول الله ﷺ فاذا هو يقول « اعلم ابا مسعود ، اعلم ابا مسعود » فألقيت السوط من يدي ، وفي رواية فسقط من يدي السوط من هيبته فقال « اعلم ابا مسعود ان الله أقدر منك على هذا الغلام - وفي رواية - عليه » فقلت يارسول الله هو حر لوجه الله فقال « اما لو لم تفعل للفحتك النار ، أو لمستك النار »

(٨) التدبير عتق لازم ، وينعقد بقول السيد لعبده أنت مدبر وأنت حر عن دبر مني أي بعد ان أدبر عن هذه الدنيا . وكذا أنت حر بعد موتي ، اذا قصد به التدبير فان أطلق ولا قرينة فبعض العلماء يرجح انه تدبير تقوية لجانب العتق الذي هو من مقاصد الشرع الاساسية ومنهم من يرجح جانب الوصية

ومن أحكام التدبير انه لازم في الحال لايجوز الرجوع عنه كالوصية ، وانه لا يجوز للمدبر (بالكسر) بيع المدبر (بالفتح) عند مالك وابي حنيفة وان من دبر بعض مملوكه وهو مالك له كله سرى العتق الى باقيه ، وقال جمهور العلماء ان أولاد الجارية المدبرة تابعون لها في العتق والرق فاذا عتقت عتقوا معها

(٩) عتق امهات الاولاد ـ وهو أن الجارية التي تلد لسيدها ولداً تصير حرة من رأس ماله بعد موته فلا تدخل في ملك الورثة ولا يجوز له بيعها في حياته عند جمهور السلف والخلف وأولهم عمر وعثمان (رض)

ففي حديث عمر عند الامام مالك « أيما وليدة ولدت من سيدها فانه لا يبيعها ولا يهبها ولا يورثها وهو يستمتع منها فاذا مات فهي حرة » ولو ان أم الولد تورث لورثها أولادها فكانت ملكا لهم وهذا مناف لمقاصد الشرع وأصوله وآدابه

(١٠) ان من ملك أحداً من أولي القربى عتق عليه وأعم ما ورد فيه حديث سمرة بن جندب مرفوعا « من ملك ذا رحم محرم فهو حر » رواه احمد وأصحاب السنن الا النسائي والحاكم وصححوه وهذا بمعنى ما قبله من عتق امهات الاولاد .

﴿ النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات ﴾

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام

(أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة او ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجه بأمه وكان طلاقا في الجاهلية ، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيده المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف يمينا وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين او كسوتهم او تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة

(ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

﴿ النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود ﴾

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن ، وهو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه (الكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة

الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف وألوف الالوف من الدراهم والدنانير ، فلو نفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لأمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام

﴿ النوع الرابع منها العتق الاختياري لوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته ﴾

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ، ومما يدل على انه من أعظم العبادات وأصول البر آية البر من سورة البقرة(٢ : ١٧٦)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله ﷺ « أيما رجل أعتق امرءاً مسلما [١] استنقذ الله بكل عضو منه عضواً من النار » متفق عليه من حديث ابي هريرة ، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث ابي ذر قال سألت رسول الله ﷺ اى العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله ، وجهاد في سبيله » قلت فأي الرقاب أفضل ؟ قال « اغلاها ثمناً وانفسها عند أهلها » الحديث.

ومن أشهرها حديث ابي موسى الاشعري « أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعليمها وأعتقها وتزوجها فله أجران » وفي الصحيح ان ابا هريرة لما روى قوله ﷺ « للمملوك الصالح أجران » قال والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أمي لأحببت ان أموت وانا مملوك

﴿ الوصية بالمماليك ﴾

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالمماليك ومنها تخفيف الواجبات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والاقربين ، ونهى النبي ﷺ عن قول السيد « عبدي وأمتي » وأمره ان يقول « فتاي وفتاتي وغلامي » وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ويلبسوهم مما يلبسون ، ويعينوهم على خدمتهم ان كلفوهم ما يغلبهم كما في حديث ابي ذر في الصحيحين وغيرهما

(١) اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وانه قربة وانما اختلفوا في عتقه في الكفارة

وكان يوصي بالنساء وماملكت الايمان حتى في مرض موته الى أن التحق بالرفيق الاعلى ﷺ وسأله ابن عمر كم أعفو عن الخادم ؟ قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » وهذا مبالغة أي كلما أذنب

ولهذا كان المسلمون في الصدر الاول يبالغون في تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة. ولعمر الحق ان العبد المملوك في حكم الاسلام الاول كان أعز نفساً وأطيب عيشاً من جميع الاحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج من غيرهم أو نفوذهم ، وان حكومة الولايات المتحدة لتعامل الجنس الاحمر من سكان البلاد الاصليين الذين تمن عليهم بالحرية بغير الاحكام التي تعامل بها الجنس الابيض حتى ان من اعتدى منهم على امرأة بيضاء يقتل شر قتلة — ان لم تقتله الحكومة قتله الشعب — بخلاف العكس ، ولا يتسع هذا المقام لتفصيل ذلك والشواهد عليه

خلاصة البحث

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الانبياء عندنا وعند النصارى ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي ، والكلام في اعجاز القرآن اللغوي والعلمي . وما أحدثه من الانقلاب البشري من كل وجه ، ثم أضف اليه هذه العشرة الانواع من مقاصد القرآن ، في إصلاح البشر وتكميل نوع الانسان ، من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي ، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل للمصالح العامة ، ودفع المفاسد القديمة والطارئة ، من كل ما سبقها من تعاليم الانبياء ، وفلسفة الحكماء ، وقوانين الملوك والحكام ، على اختلاف الاعصار ، مع العلم القطعي من تاريخ محمد ﷺ انه كان أميا يؤثر بطبعه عيشة العزلة فلم يتفق له الاطلاع على كتب الانبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين ، وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسائلها . والعلم بأنه انما جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الاربعين —

وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدركات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتنف مثلها ائتنافا لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره ، وآنفة شبابه وشرخه ، راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عقلك مضطراً الى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أمي أو متعلم وانه وحي من الله تعالى

فاذا فرضنا انه يحتمل أن يكون قد تسرب الى ذهنه بعض مسائلها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة ، أو انه فكر في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الفلتات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الامم كلها ، وان تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور الى أن تظهر في سن الكهولة ، بهذه الروعة من البيان، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان في العقول ، فتحدث هذه الثورة في الامة العربية المغيرة لطباعها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها ، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله ؟ وأعجب من هذا كله ان يظهر في هذا العصر ان أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم ؟ كلا ان هذا لم يعرف مثله في البشر

وإذ قد ثبت هذا فالواجب على كل من بلغه من البشر ان يتبعه ويهتدي به لتكميل انسانيته واعدادها لسعادة الدنيا والآخرة . فان اعترضته شبهة عليه فليبحث عنها أو لينبذها ، فما كان لعاقل ثبت عنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته أو مداواة مرضه لشبهة في بعض مسائله أو خيبة الاطباء في بعض معالجاتهم للمرضى . فهو أعظم خوارق العادات فيهم ، فلم يبق الا انه علم موحى به من الله عز وجل

قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البالغَةُ فلو شاء لهداكُمْ أجمعين (الانعام ٦ : ١٤٩)

« رضيت بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا »

أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وأنه خاتم النبيين ، ورحمته العامة للعالمين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين

خاتمة الكتاب

(في دعوة شعوب المدنية الى الاسلام ، دين الانسانية والسلام)

لانقاذ البشر من هذا الشقاء العام

﴿ بناء على ما تقدم من المقدمات والمقاصد في بحث الوحي المحمدى ﴾

تمهيدات

(١) دين الله على ألسنة الانبياء المتقدمين

قد علم مما تقدم أنه كان في جميع الأمم أفراد جاءوهم بأنباء ورسالات عن ربهم وخالقهم ، موضوعها تكميل فطرتهم بهداية أعلى وأتم مما تصل إليه مداركهم العقلية في معرفة ربهم ، وما يجب له عليهم من الشكر والعبادة له وحده ، وما يجب لبعضهم على بعض من الحقوق والواجبات ، وما يحظر عليهم من المفاسد والمنكرات ، لتزكية نفسهم بما تصلح به أمور معاشهم ، وما ترتقي به أرواحهم حتى تكون أهلا للقائه تعالى وكمال معرفته وحسن جزائه في الدار الآخرة ، وهو دين الله تعالى

وعلم أيضا أن جميع الاديان المبنية على أساس الايمان بالله واليوم الآخر والاعمال الصالحة التي تزكى بها الانفس وتصلح فهي من تبليغ أولئك الانبياء المرسلين من وحي الله عز وجل ، سواء أسماهم أقوامهم رسلا أم لا . ولكنها كانت خاصة لا عامة ، وموقوتة لا دائمة : وقد طرأ عليها التغيير والبدع والضياع قبل ختمها بالاسلام العام

ومن استقرأ التاريخ العام تجلى له ان أكثر ما صلح به حال البشر في شعوبهم وأممهم فهو من اتباع هداية هؤلاء الانبياء — وأن علم من دونهم من الحكماء والادباء وواضعي القوانين والنظم العامة لم يكن له مثل إصلاحهم في عمومه وتأثيره في الأنفس ، بل كان أكثر هؤلاء المرشدين غير راشدين ، والدعاة إلى الهدى غير مهديين ، ومنهم واضع الديانة الطبيعية الاخيرة من الاوربيين ، فقد كان حسن القول سيء العمل فاسد الاخلاق ، وديانته صورة جميلة مقتبسة من كتب

الادب والشرائع ، لكنها مادية لاروح فيها، ولهذا لم يتبعه أحد من المعجبين به وبها.
ولا تزال جميع الشعوب الراقية في العلم والفلسفة ومنهم قومه في أشد الحاجة إلى اتباع الوحي المأثور عن بعض أولئك الانبياء، وأكثرهم يدينون بها، على انقطاع أسانيد كتبها وفقد أصولها، ووسوء التصرف في ترجماتها، وكونها خاصة موقوتة ، لاعامة دائمة ، بله ما أورده العلماء والحكماء على عقائدها وأحكامها من النقد والنقض ، إلا الاسلام

(٢) ثبوت تاريخ محمد بنقل لم يثبت بمثله تاريخ نبي غيره

ان علماء التاريخ العام يعلمون أنه لم ينقل تاريخ أحد من أولئك الانبياء نقلا صحيحا متواترا إلا تاريخ محمد ﷺ ، ولم يحفظ كتاب أحد منهم حفظا تاما محيطا بألفاظه وحروفه وصفة تلاوته وإلقائه من عصره إلى هذا اليوم إلا هذا القرآن الذي أوحاه الله إليه ـ وأنه لم يعن قوم من أقوام أولئك الانبياء بمثل ما عني به قومه وأتباعه من تحرير أخباره وسيرته وسننه بالحفظ والعمل والتدوين، مع نقد نقلتها ، والتمييز بين ما صح وما لم يصح منها ، وجعل غير الصحيح على درجات من حسن وشاذ ومنكر وموضوع ، ووضع المصنفات والمعاجم المفصلة لذلك

وقد بلغ من صدق حفاظ الحديث وأئمة الجرح والتعديل لرواته وأمانتهم أنهم كانوا متعبدين بصناعتهم لذاتها ، بصرف النظر عن المتون المروية عن النبي ﷺ وعن أصحابه أو أعدائه بشأنه ، أكانت موافقة لعقائدهم وآرائهم أم لا ؟ بل لم يكن يصدهم عن نقل الرواية وتصحيح سندها بحسب المعروف عندهم من تاريخ رجال السند أن تكون مخالفة لنص القرآن أو أصول العقائد المقررة أو الاحكام الثابتة بروايات أخرى ، بل كانوا يدعون نقد متون الاحاديث والترجيح بينها إلى أهل الدراية من الفقهاء وغيرهم . ولهذا كانوا يعدون دعاة المذاهب والنحل الدينية المبتدعة والاحزاب السياسية غير عدول في النقل ، لان أحدهم يجعل مذهبه أصلا ويطلب الرواية لتأييده وابطال المذهب المخالف له فيجعلها فرعا له ، فان لم توافقه يتأولها أو يردها بشبهة جدلية ، وهم لم يكونوا يستحلون ذلك ، مثال ذلك أنه لم يكن لأحمد بن حنبل وهو أكبر أئمة هؤلاء الحفاظ وعلماء الجرح والتعديل في عصره مذهب يعده أصلا ويطلب الروايات لإثباته، بل كان إذا قال قولا ثم صحت

عنده رواية بخلافه يرجع عنه ويتبع ما صح من الرواية ، بل كان يرجح الرواية على ماقاله إذا كان رأيا واجتهادا وان لم تصل الرواية إلى درجة الصحة التامة ، ولذلك قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري إن الامام أحمد كان محدثاً لا فقيها ، يعني أن مذهبه هو الحديث لا قواعد اجتهادية يرجع الاحاديث اليها ، لا أنه لم يكن عالما بالفقه

فعلم من هذا أن تاريخ محمد وقرآن محمد وسنة محمد وسيرة محمد في دعوته وتشريعه - كل ذلك ثابت بالنقل الصحيح المتصل إلى هذا العصر ، وأن الاصول المتواترة منه قطعية ، وان غير القطعي منها في الرواية والدلالة مما محل للاجتهاد لا تتوقف عليه صحة الاسلام ، وأن مثل هذا لم يتفق لتاريخ نبي آخر ولا دينه وكتابه ، ولا لغير الانبياء من الحكماء والملوك وغيرهم من زعماء البشر

(٣) اشتداد حاجة البشر في عصرنا الى الدين

قد اشتدت حاجة شعوب الحضارة في هذا العصر الى هداية دينية عامة بأتم وأوضح مما كانت عليه هذه الحاجة ، قبل البعثة المحمدية عند ما اشتد فساد دولتي الروم العظمى في الغرب ، ودولة الفرس الكبرى في الشرق الادنى ، ودولة الصين في الشرق الاقصى ، وما دونهن من دول العالم ، فساد الفسق والفجور ، والبغي والحروب ، وقد صار خطر الحرب على البشر في هذا العصر أضعاف ما كان في تلك العصور بسبب نعم العلم والحضارة التي أحالها بغي الدول وفسق الشعوب نقما ، كما قال تعالى (٤٢ :٢٧ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض) فقد صارت الدنيا كبلد واحد ولكن شعوبها قد ازدادت تعاديا وضراوة بايقاع بعضها ببعض ، ومكنتهم وسائل العلم من استثمار خيراتها وكنوزها بما يكونون به سعداء كلهم فما زادهم ذلك إلا شقاء ، وان أشدهم شقاء وتعاديا وشرا ، لارقاهم في المعارف والفنون ، فعلم بالحس والاختبار ان العلم البشري عاجز عن اصلاح الناس ، ويشعر كثير من رجال العلم والسياسة بالحاجة الى هداية الدين الالهي ، وتمنى بعضهم لو يبعث فيهم نبي جديد ، ولكن الله تعالى ختم النبوة بكل مايحتاج اليه البشر من هداية وحيه وجعلها باقية مابقي هذا العالم ، وقد بينت أهمه في هذا البحث ، وها أنا ذا ألخصه فيما يلي :

مقدمات إثبات الوحي المحمدي

(وهي خلاصة تاريخ محمد قبله ، ومباينتها لحالته بعده)

ألخص أصل هذا الموضوع هنا وهو إثبات الوحي المحمدي في ست مقدمات يتلوها بيان دعوة النبوة، ويتصل بها بيان مقاصدها العشر في التشريع الديني والمدني، وأقفي على ذلك ببيان النتيجة المقصودة بالذات وهي الدعوة الى الاسلام فأقول :

﴿ ١ — نشأة محمد ﷺ وفقره وأميته ﴾

انه قد علم بالنقل المتواتر من تاريخ محمد ﷺ أنه نشأ يتيما أمياً بين قوم أميين، لم يقرأ سفراً ، ولم يكتب سطراً ، ولم يلقنه أحد علما ، قضى طفولته في قبيلة بني سعد بالبادية وكان يرعى الغنم فيها مع أخوته في الرضاع ، ولما عاد إلى بلده (مكة) كان يرعى الغنم بالاجرة أيضا ، ثم اشتغل في شبابه بالتجارة ، — وأنه كان صحيح الجسم ، حسن الصورة ، قوي البنية ، كامل الاخلاق ، صدوق اللسان ، عظيم الامانة، كبير المروءة ، سخي الكف ، وصولا للرحم، عفيف النفس ، عزوفا عن الشهوات . وهذه الصفات هي التي حببته الى خديجة بنت خويلد فضلى نساء قريش التي كانوا يلقبونها بالطاهرة فخطبته لنفسها وهي أرملة مثرية محسنة كهلة بلغت الاربعين، فتزوجها وهو ابن خمس وعشرين ،وهي السن التي تكمل بها البنية ويستوي الشباب ، فعاش معها خمسا وعشرين سنة مقتصراً عليها إلى أن توفيت ، ورزق منها الاولاد ، وكانت أحب نسائه اليه حتى بعد وفاتها

﴿ ٢ — عيشته في العزلة ، وزهده في الرياسة والشهرة ﴾

(وعدم عنايته بالشعر والخطابة والمفاخرة)

انه قد علم بالنقل المتواتر أيضا أن محمدا ﷺ كان يؤثر العزلة على مخالطة قومه شبانهم وكهولهم وشيوخهم ، فلم يكن يشاركهم في شيء من عباداتهم الشركية الوثنية ، ولا كان يحضر محافل لهوهم وطربهم ، ولا كان يغشى دار

ندوتهم التي يتشاورون فيها في أمور سياستهم وحروبهم ، ولا كان يُعنى بقرض الشعر ولا روايته وانشاده ، ولا بالقاء الخطب في أسواقهم ومجامعهم ، ولم يتصد يوما ما لمفاخرة أحد منهم بنفسه ، ولا بمجد آبائه وأجداده ، ومن ثم لم يكن من علمائهم ولا بلغائهم ، إذ لم يكن لمعارفهم وحكمتهم وفصاحتهم مظهر إلا الشعر والخطب والمفاخرات ، ولا كان من محبي الرياسة فيهم ، وتأبى طبيعة الانسان المحب للظهور والرياسة أن يعيش عيشة العزلة في شرخ الشباب وعنفوانه

ولو ثبت عنه شيء من ذلك لنقله اتباعه الذين عنوا برواية كل ما علموه وما سمعوه في شأنه وان لم يثبت عندهم ، ثم دونه المحدثون بأسانيده متصلة أو منقطعة صحيحة أو منكرة ، ووضعوها بين أيدي رجال النقد التحليلي منهم ومن غيرهم ، وقد صرح بعضهم بانكار كثير مما نقلوه من العجائب في قصة مولده ﷺ وغيرها مما لا يزال يعجب به غير نقاد الحديث من العوام والخواص ، لانهم يعدونه من المناقب والمعجزات أو ارهاصات النبوة ٠

(٣ — خلو فكره من منصب النبوة وعدم رجائه فيها)

انه ورد في بعض الروايات الآحادية ما يدل على أن قومه كانوا يسمعون من أهل الكتاب في الشام أنه سيبعث نبي من العرب كأنبياء بني اسرائيل يدعو الناس إلى دين جديد ، وكان منهم بحيرا الراهب الذي ذكرنا خبر رؤيته له مع عمه أبي طالب في بصرى ، وبشارته لعمه بأنه سيكون لولده هذا شأن ، وأوصاه بأن يحذر عليه من اليهود (١) ومن هذه الروايات أن خديجة بلغتها هذه الاخبار فكانت ترجو أن يكون هو ذلك النبي المنتظر ، وكان هذا من مرغباتها في التزوج به . وفي بعضها ما يدل على أنه قد بلغه هذا فتعلق رجاؤه به لما كان يكرهه من شرك قومه وفسادهم وفساد سائر من عرف حالهم أو أخبارهم من البشر .

ولكن يعارض هذا ما أوردناه من حديث بدء الوحي له في الصحيحين من انه لما رأى الملك أول مرة وكان من أمره معه ما كان خاف على نفسه وكاشف

---

(١) راجع صفحة ٣٣

خديجة بخوفه فطأمنته ، وأقسمت إنه لم يكن الله ليخزيه ، وعللت قسمها بما كمله الله تعالى به من الفضائل والفواضل ، ثم أخذته إلى قريبها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ التوراة والانجيل واستشارته فيما رآه وسمعه ليطمئن قلبه بما كانت تتوقع من رأيه فيه ، ولما سمع (ص) رأي ورقة فيما رآه وأنه من الوحي الذي كان ينزل به الناموس على موسى عليه السلام ـ استقر به [١]

فهذا الحديث وهو أصح ما ورد في بدء نبوته وما كان من أمره قبلها وبعدها، يدل على أن محمداً ﷺ لم يكن يعرف من أمر النبوة شيئا ، ولا كان يرجو أن يكون نبيا فيستشرف لذلك ويقوى استعداده له كما بيناه من قبل (٢)

ويؤيد هذا من القرآن (وهو القول الفصل القطعي الذي لا ينهض لمعارضته شيء من تلك الروايات المرسلة والمنقطعة) قوله تعالى في سورة الضحى (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى؟ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) وفسر هذا بقوله له في آخر سورة الشورى ٤٢ : ٥١ (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ * ٥٢ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ٥٣ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلاَ إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

وأصرح من هذا قوله تعالى في سورة القصص ٢٨ : ٨٦ (وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) — إلى آخر السورة. أي ما كنت ترجو ولا تؤمل (يا محمد) أن يلقى إليك الكتاب من وحي ربك فتكون نبيا رسولا ، ولكنه ألقي إليك رحمة من ربك وفضلا عليك وعلى عباده ، وفاقا لقوله تعالى له في أواخر سورة الانبياء ٢١ : ١٠١ (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين

(١) راجع ص ٤٣–٤٨ (٢) ص ٥٠–٥٨

(٤ — مفاجأة الوحي له في سن الكهولة)

قد علم بالروايات الصحيحة المتفق عليها أن الوحي الصريح قد فجأ محمدا ﷺ فجأة (بعد تأنيس وإعداد له بالرؤيا الصادقة) بعد استكماله ﷺ سن الاربعين ، وهو وحي فيه من العلوم العالية التي ترتب عليها من الاعمال العظيمة ما كان قلباً للاحوال والاوضاع الدينية والمدنية والاجتماعية التي كان عليها جميع البشر ، بحيث لا يمكن أن يماثله ولا يقرب منه انقلاب آخر في العالم منذ عرف تاريخه إلى هذا اليوم كما فصلناه فيما تقدم.

(٥ ـ استحالة طروء العلوم الكثيرة العالية)

(والقيام بالعظائم العالمية العامة ، فجأة في سن الكهولة)

ان من المقرر عند علماء النفس وعلماء الاجتماع في هذا العصر أن من بلغ سن الخامسة والثلاثين ولم ينبغ في علم أو عمل عالميّ عظيم لا يمكنه بعدها أن يقوم بشيء منهما بدءا أنفا (بضمتين أي جديدا لم يسبق له) فضلا عن الجمع بينهما ، ويقول هؤلاء العلماء ان جميع الرجال العظماء من العلماء والفلاسفة والسياسيين والفاتحين قد ظهر نبوغهم في سن الشباب وان تم بعضه أو ظهر في سن الكهولة.

وقد ألقى أحد كبار العلماء[1] خطبة ضافية في مجمع تقدم العلوم الاميركي من عهد قريب حاول فيها اثبات نظرية ترجيح الذكاء الفطري على ملكة الاختبار والتجارب في الشؤون العالمية العامة خلافا لما عليه الجماهير مستدلا عليها بتلك القاعدة التي زادتها المباحث الحديثة إثباتا ومما قاله في ذلك :

« وتدل المباحث الحديثة التي قام بها جمهور من علماء البسيكولوجيا على أن نشاط الانسان العقلي يتفق في بدئه واشتداده وانحطاطه مع أطوار النشاط الجسمي ، وأن النمو العقلي يكتمل قبل الزمن الذي يتوهمه جمهور الناس ، ثم يأخذ في الانحطاط أيضا قبل الزمن الذي يتوهمونه . وكان جونسون الكاتب الانجليزي الشهير

١) هو الدكتور ويشلر الاميركي وقد لخصت خطبته مجلة الهلال

يقول إن شيخوخة الانسان تبدأ في الخامسة والثلاثين ، فكل من يطمح إلى النبوغ يجب أن يسعى اليه قبل تلك السن ، وإلا فمن العبث أن يسعى اليه بعدها. وكان سويفت الاديب والمؤلف المشهور يشير الى الحياة بعد سن الثلاثين بكونها « ميلا وتحولا إلى الجانب الآخر » ويقصد بذلك أنها بدء الشيخوخة

«ومع ذلك يتوهم الكثيرون أن الشيخوخة لا تبدأ إلا في الخامسة والستين أو السبعين من العمر . ولا ريب في أن الانسان كلما تقدم في العمر جمع الشيء الكثير من الحكمة والاختبار — أي دون الابتداع والابتكار —

وقال بعد هذا « ان النشاط العقلي يكمل في الحادية والعشرين ويعرض له الضعف والفتور في أوائل العقد الثالث من العمر . وان بعض النابغين الذين اشتهروا بالعلم والتحقيق في سن الشيخوخة كانوا قد بدأوا عملهم في سن الشباب ثم ظهرت غايته بعد ذلك » وضرب المثل لذلك بأفراد من المشهورين [١] ومن الافراد الذين أفادوا الناس بعلمهم في سن بعد هذه السن أيضا وأنهم قليلون ، كما ذكر كثيراً من النابغين في سن الشباب على أصل القاعدة

(٦ ـ الفرق بين محمد وموسى وسائر النبيين عليهم السلام)

(في علوم رسالته وأعمالها)

مما لا ريب فيه أنه لا يعلم ان في البشر أحدا قام بأمر عالي عظيم وأتمه في سن الكهولة او الشيخوخة ولم يكن قد استعد له بعلم ولا عمل قبل ذلك ، وانما نستثني انبياء الله المرسلين لان علم النبوة فيهم من وحي الله تعالى لا من كسبهم ، وقد علمت أن اشهرهم واعظمهم عملا قبل محمد ﷺ موسى عليه السلام ، وعلمت

(١) كداروين الذي استغرق جمعه لمواد كتابه أصل الانواع ثلاثين سنة ، ودانتي شاعر ايطالية وقد ظهر نبوغه بعد اشتغال طويل في الشعر ومادته ، وآينشتين العالم الالماني المعاصر وقد أظهر مذهبه في النسبية بعد اشتغاله في العلوم الرياضية والفلك من سن الصبا

نسبة شرعه وعمله الى شرع محمد وعمله عليهما السلام مع الفرق بين تربيتهما وبيئتهما (١)؛

ويليه في أنبياء بني اسرائيل عيسى المسيح عليه السلام وكان تابعا لشريعته ناسخا لبعض تشديداتها، وكل عمله أنه أتى مواعظ كانت قد اشتدت اليها حاجتهم لما عرض لهم من الفساد في الأخلاق والاعمال ، وحب الدنيا وعبادة المال ، وبشر بملكوت الله وروح الحق الذي سيأتي بعده ويعلمهم كل شيء. ولا تصدق بشارته إلا بمحمد ﷺ

وأما العمل الذي وقع في العالم على يد محمد ﷺ فلم يعرف التاريخ له شبيها ولا مثيلا في نابغي الشبان ولا الكهول ولا الشيوخ لامن الانبياء ولا ممن دونهم كما تقدم شرحه وهاك خلاصته :

سؤال

(ما الذى جاء به محمد (ص) بعد الاربعين وما الذى علمه وما الذى فعله)

ولم يكن لشيء منهما مايدل عليه قبل هذه السن من قول ولا فعل ولا علم ولا عمل

الجواب

جاء بدين معقول موافق للفطرة عام دائم، وشرع عادل مساو بين الناس، وجمع شمل امة متفرقة متعادية لم يعرف تاريخها لها وحدة، وكون أمة متحدة مدنية مؤلفة من جميع الشعوب والقبائل ، وأسس دولة عزيزة قوية عادلة ، وأصلح جميع ما كان قد أفسده البشر من الاديان والآداب والحضارات، بالظلم والعصبيات والخرافات.

(موضوع الدعوة المحمدية ومزايا كتابها القرآن)

ادعى ان الله تعالى بعثه في قومه الاميين الجاهلين المشركين المفسدين في الارض ليزكيهم ويربيهم في الكبر ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فيبلغوا دعوته للامم فيكونوا من الائمة المصلحين ، ومن خلفاء الارض الوارثين، وكذلك كان (٢٤ :٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)

(١) راجع ص ١٤ و ٦٤

ادعى ان جميع شعوب البشر على اختلاف مللها ونحلها ضالون مضلون ، وان أتباع النبيين منهم قد فسقوا عن هدايتهم ، واشركوا بعبادة ربهم ، وابتدعوا في الدين ما لم يشرعه الله لهم ، وانهم اضاعوا بعض كتبهم وحرفوا بعضها ، وانه جاء من عند الله تعالى لهدايتهم كلهم أجمعين ، وجعلهم أمة واحدة متآخية متعارفة متناصفة مع من لم يتحد بها من الشعوب والقبائل كما تقدم ، وان دينه سيظهر على أديانهم بالحجة والبرهان ، والعقل والوجدان ، والسيادة والسلطان ، وكذلك كان (٩ : ٣٢ هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون).

جاء بكتاب ادعى انه كلام الله تعالى اوحاه إليه ، وانه ليس له منه إلا تبليغه كما تلقاه ، وقد ظهر ان هذا الكتاب لم يكن بينه وبين كلام محمد قبله ولا بعده شبه في نظمه ولا اسلوبه ولا معانيه ولا بلاغته ولا تأثيره ، ولا اخباره وعقائده ، ولا شريعه واحكامه ، ولا معلوماته الكونية والاجتماعية ، ولا حكمه وآدابه

القرآن

(بعض الدلائل على انه من عند الله لا من عند محمد ﷺ)

قد ثبت بالدلائل العقلية المستمدة من تاريخ محمد ﷺ قبل النبوة وبعدها انه قد أوتي من ملكة الصدق الراسخة ما يعصمه من الكذب على الناس فضلا عن الكذب على الله عز وجل كما قال أعدى أعدائه من قومه في أثناء مقاومتهم له ، ويؤيد هذه الرواية قوله تعالى فيهم (٦ : ٣٣ فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) وقد تقدم أن الاحرار المستقلين من علماء الافرنج قد اقتنعوا بعصمته من الكذب(١) واننا نوردهنا دلائل أخرى على استحالة كون هذا القرآن من فيض استعداده الشخصي ، أو انه كان وحيا نفسيا نابعا من روحه مقترنا باعتقاد أنه من ربه كما قيل ، فضلا عن استحالة كونه افتراه على ربه عز وجل فنقول :

(١) راجع صفحة ٢٦

﴿ الدليل الاول ﴾

علم من هذا القرآن أيضا أنه كان حين يأتيه الوحي يخاف أن يتفلت منه شيء فلا يحفظه فيعجل بتلاوته ليحفظه فخوطب حين عرض له هذا في أثناء نزول سورة القيامة بقوله تعالى (٧٥ : ١٦ لا تحرك به لسانك لتعجل به ١٧ إن علينا جمعه وقرآنه ١٨ فاذا قرأناه فاتبع قرآنه ١٩ ثم إن علينا بيانه) فكفل له ربه جمعه له بالحفظ ، وأن يقرأه كما ألقي اليه لا يفوته منه شيء ، كما ضمن له عدم نسيان شيء منه بقوله (٨٧ : ٦ سنقرئك فلا تنسى ٧ إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى) أي إنا قد عصمناك من نسيان شيء مما نقرئك إياه بتلقين الملك ، لكن إن شاء الله أن تنسى شيئا فانك إنما تنساه لانه تعالى هو الذي شاء ذلك لحكمة له فيه ، لا لضعفك عن الحفظ وعروض النسيان الذي تخشاه ، وقد عصمك الله منه . وهذا الاستثناء المنقطع لا يدل على أنه تعالى شاء أن ينسى شيئا منه بل هو كقوله تعالى حكاية عن ابراهيم (ص) لقومه (ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا) وقيل ان الاستثناء لتوكيد النفي وقيل انه لما أراد نسخه

﴿ الدليل الثاني ﴾

إنه ﷺ كان يبلغ ما يلقى اليه من القرآن بنصه وعبارته كما أمر فيه لا بمعناه كوحي الالهام وما يلقيه الملك في روعه فيجمع بين الامر بالقول ومقوله المراد منه مثل (قل هو الله أحد) ولكنه عند ما كان ﷺ يريد تبليغ المعنى في أثناء كلامه الذي لم يقصد به تلاوة القرآن يذكر مقول القول كالذي تراه في كتابه إلى هرقل قيصر الروم وغيره وهو « ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً » الخ ونص الآية (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا) الخ

﴿ الدليل الثالث ﴾

قد علم من هذا الكتاب مايضاد كونه من علم محمد ورأيه وهو انه هو الذي يربيه ويعلمه كما قال (٤ : ١١٣ وانزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما) ويصحح له خطأ اجتهاده في التبليغ وفي التنفيذ تارة باللين واللطف، كقوله (٩:٤٣ عفا الله عنك لم اذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) وتارة بالموعظة والشدة كقوله تعالى (١٧ : ٧٤ ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ٧٥ إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات ثم لاتجد لك علينا نصيرا) وقوله (٨ : ٦٧ ما كان لنبي ان يكون له أسرى حتى يثخن في الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ٦٧ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) وقوله (٣٣ : ٢٧ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله، وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه) قالت عائشة لو كان للنبي ﷺ ان يكتم شيئا من القرآن لكتم هذه الآية

وقوله (٨٠ عبس وتولى * ان جاءه الاعمى * وما يدريك لعله يزكى * او يذكر فتنفعه الذكرى * اما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * واما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى ؟ كلا) وقوله (١٨ : ٢٨ واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .) الآية وقوله تعالى في معناها (٦:٥٢ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين) نزلت هذه الآيات الاخيرة في ارشاد النبي ﷺ إلى العناية بفقراء المؤمنين وعدم المبالاة بأغنياء قريش وكبرائهم الذين كانوا يحقرونهم، وكان من اجتهاده ﷺ أن يستميل الكبراء الاغنياء لظنه انهم إذا آمنوا لا يلبث جمهور العرب ان يقتدي بهم.

﴿ الدليل الرابع ﴾

قد اشتمل هذا الكتاب على تحدي العرب وغيرهم به وصرح فيه بأن جميع الخلق عاجزون عن الاتيان بمثله في جملته ، وبسورة من مثله ، واستدل النبي بذلك على كونه من عند الله تعالى لا من عنده ، فظهر عجز العرب ثم عجز غيرهم عن ذلك كما بيناه في الكلام على إعجازه بلغته وأسلوبه ونظمه[1] واعجازه بتأثيره وما أحدثه من الثورة العربية والانقلاب العالمي[2] ولم يكن شيء من هذا في استطاعة محمد ﷺ الذاتية ، ولا من استعداده الذي تدل عليه سيرته في شبابه

﴿ الدليل الخامس ﴾

ليتأمل القارىء قوله تعالى (١٠ : ١٥ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لي ان أبدله من تلقاء نفسي ، إن أتبع إلا ما يوحى الي ، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ١٦ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) أمره أن يجيب الذين اقترحوا عليه الاتيان بقرآن غير الذي عجزوا عن معارضته أو تبديله بأن تبديله ليس في استطاعته من جهة ، ومن جهة ثانية انه مكلف أن يبلغه فإن خالف عذبه الله تعالى ، ومن جهة ثالثة وهي الحجة العقلية انه لم يكن أدراهم به في علومه ولا في لغته ودليله ان عاش فيهم ٤٠ سنة قبله لم يظهر منه شيء يدل على أنه كان أعلم منهم أو أقدر على مثله

﴿ الدليل السادس ﴾

إنه قد نقل عنه ﷺ بأصح الروايات التي تواتر خبر بعضها أنه كان يبطىء عليه الوحي أحيانا فيضيق صدره ويشق عليه حتى قال المشركون مرة ان ربه - وقالت امرأة منهم إن شيطانه - ودعه أي تركه وقلاه أي أبغضه ، فأنزل الله تعالى عليه (ما ودعك ربك وما قلا) وحتى كان يرجىء جواب السائلين

---

(١) راجع (آية الله الكبرى) في ص ٥٩ (٢) راجع ص ٦٢

والمستفتين انتظارا له، وكان أكبر العبر وأوضح الدلائل على ما نريد هنا من هذه المسألة ما كان في قصة الافك اذ أذاع زعيم المنافقين (عبدالله بن أبي بن سلول) قذف السيدة عائشة أم المؤمنين وأحظى الازواج المطهرات عند رسول الله ﷺ بالفاحشة، وصدق خبره بعض المؤمنين وتحدثوا به، وقد كان كل ما ابتلي به من إفك المنافقين والكافرين دون هذه الحادثة إيلاما له (ص) حتى استشار من استشار في فراقها على علو مكانة أبيها عنده، وسأل جاريتها بريرة هل رأت منها ما يريبها فحلفت إنها ما رأت ولا علمت قط ما يريبها فيها، وكانت عائشة تبكي ليلا ونهارا ما يرقأ لها دمع وهي موقنة ان الله سيبرئها قالت: ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله في شأني وحيا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ كلاما يتلى. ومكث ﷺ شهرا لا يوحى اليه حكمة منه تعالى، ثم نزلت آيات براءتها المعروفة في سورة النور. فلو كان لاستعداده الشخصي ﷺ تأثير في نزول الوحي عليه أو لو كان الوحي نابعا من نفسه مع اعتقاد أنه من الله تعالى كما زعم الزاعمون لما أبطأ عليه في هذه الحادثة بل الكارثة العظمى

﴿ الدليل السابع ﴾

تقدم في أصح الاحاديث المرفوعة في نزول الوحي عليه ﷺ ما كان من رعبه منه في أول الامر وانه كانت تتغير حاله حتى يتفصد عرقا في اليوم الشديد البرد، وما ورد من ان وزنه كان يزيد في تلك الحال، وقد بينا ان ذلك من تأثير غلبة الروحانية عليه باتصاله بجبريل الروح الامين. وكان أصحابه يعرفون حين ينزل عليه الوحي وهو معهم. قال عبادة كان النبي ﷺ اذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه. رواه مسلم. وفي حديث الصحيحين والنسائي أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر ليتني أرى النبي ﷺ حين ينزل عليه الوحي فلما كان بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل به عليه جاءه الوحي فأشار عمر الى يعلى أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه فاذا هو ﷺ محمر الوجه يغط لذلك ساعة (أي مدة قليلة) ثم سري عنه اه باختصار

تأول هذا أعداؤه (ص) من الافرنج وتلاميذهم بأنه كان يعرض له نوبات

عصبية وتشنجات (هستيرية) وما أبعد الفرق بين حاله تلك وحالة أولي الامراض العصبية في المزاج فقد كان مزاجه ﷺ معتدلا ولعله الى الدموي العضلي أقرب، وفي اعراضها وآثارها ونتائجها، فذو النوبة العصبية يعرض له في أثرها من الضعف والاعياء البدني والعقلي ما يرثي له العدو الشامت ، وأما صاحب تلك الحالة الروحانية العليا فكان يتلو عقب فصمها وتسريها عنه آيات أو سورة كاملة من القرآن الذي بينا في هذا البحث بعض وجوه اعجازه اللفظي والمعنوي وما فيه من علم الغيب والحكمة والتشريع الذي لم يعرف البشر له مثلا عن حكمائهم ولا عن أنبيائهم، ولا يرجى أن يعرفوا له نظيرا في سائر أجيالهم، لانه هو الذي ختم الله تعالى به النبوة وتعليم الوحي الاعلى ، ونحن لا نزال نتحدى به بقية البشر ان يأتوا بمثله ، كما تحداهم رسول الله ﷺ في عصره ، وانما المجنون بغروره وتعصبه من يسمي هذا الكمال العلمي الاصلاحي جنونا، إلا ان يجعل الجنون من أسماء الاضداد، أو يجعل اسما لما فوق الانسانية والملكية ودون الربوبية من الكمال .

﴿ الدليل الثامن ﴾

قد علم مما ذكرناه من علوم القرآن ، ومقاصده في ترقية نوع الانسان ، أن محمدا ﷺ لم يكن يدري شيئا من مباديها ، ولا من حاجة البشر اليها ، فضلا عن وسائلها وفروعها في العبادات الروحية الصحية الاجتماعية والسياسية والادارية ، فمسألة الطهارة الاسلامية وحدها حجة على أوربة في وثنيتها ونصرانيتها وفلسفتها ، يعرفها كل عالم بتاريخها، دع سائر حكم العبادات الاسلامية ومنافعها، ولم أنشرحها لشهرتها

(النتيجة ومعنى كون القرآن كلام الله تعالى)

نتيجة هذه المقدمات، ومدلول هذه الدلائل البينات ، أن القرآن وحي من الله تعالى ليس لاستعداد محمد النفسي ولا التاريخي ولا اللغوي فيه شيء ما ، وما كان إلا مبلغا له كما تلقاه ، وليس معنى كونه كلام الله أن لله فما ولسانا نطق به ، ولا أنه سبحانه تمثل رجلا فتكلم كما في التوراة ، وانما معناه عندنا أنه تعليم من الله بصفة

خاصة غير طرق التعليم البشري كما قال (الرحمن علم القرآن) وقال (نزل به الروح الامين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين) فكلام الله عندنا شأن من شؤونه وصفة من صفات كماله كعلمه ، إلا أن وظيفة العلم انكشاف المعلومات له بدون سبق خفاء ، ووظيفة الكلام كشفه ماشاء من المعلومات لمن شاء بما شاء ، فالبشر يبلغون كلامهم النفسي بنطق اللسان وبالقلم وبالاشارات وبالآلات ، والله تعالى يبلغه بالوحي الذي لا يعرفه الا الملائكة والانبياء ، وقد تقدم آنفا (في ص ١٧٧) ان أنواعه ثلاثة . وعلم الله تعالى وكلامه وتكليمه كسائر صفاته لاتشبه صفات البشر (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)

نقفي على هذا بتلخيص ما تقدم من أصول الاصلاح العام للبشر في الدعوة المحمدية مع الاشارة الى مواضعها المفصلة فيما سبق فهي من أظهر الدلائل على ان القرآن من علم الله تعالى لا من علم محمد ﷺ الذاتي

أصول الدعوة المحمدية ومقاصدها العامة

(١) اصلاح ما أفسده أهل الكتاب، المعروف تاريخهم في الجملة ومن سبقهم من أتباع الانبياء الاقدمين بالاولى من أركان الاصلاح الديني الالهي الثلاثة وهي الايمان بالله ، والايمان بالبعث والجزاء ، والعمل الصالح الذي تتزكى به الانفس البشرية ، فانى لرجل أمي أن يعلم هذه الاصول وما أفسد أتباع الانبياء منها ويستقل عقله بما أشرنا اليه من إصلاحها المعقول الموافق للفطرة البشرية ؟ بل كان يعجز عن ذلك جميع المتكلمين والحكماء الراسخين من تلك الامم (راجع ص ٧١ ـ ٨٢)

(٢) بيان ما كان يجهله البشر من حقيقة النبوة والرسالة ووظائف الرسل عليهم الصلاة والسلام وفيه بحث مستفيض في حقيقة الآيات الكونية التي أيدهم الله بها وما يشبهها من خوارق العادات وضلال الماديين والخرافيين فيها (ص ٨٣ ـ ١٠٧)

(٣) بيان ان الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ، والشواهد على هذه الاصول لترقية نوع الانسان وبلوغه بها سن الرشد من آيات القرآن ، ولا

تزال فلسفة جميع البشر القديمة والحديثة قاصرة عن تشريع يحتوي هذه الاصول كلها ، وما جاء في القرآن من فروعها أو شروط التحقق بها (ص ١٠٨)

(٤) الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي وتحقيقه بالوحدات الثمان وحدة الامة ، وحدة الجنس البشري ، وحدة الدين ، وحدة التشريع بالمساواة في العدل ، وحدة الاخوة الروحية والمساواة في التعبد ، وحدة الجنسية السياسية الدولية ، وحدة القضاء ، وحدة اللغة ، ولم يأت بهذه الوحدات البشرية في ذلك كله ولا في أكثره دين ولا تشريع الا دين القرآن . وهدي محمد عليه الصلاة والسلام (ص ١١٩)

(٥) المزايا العشر للتكاليف الشخصية في الاسلام وهي الجمع فيها بين حقوق الروح والجسد ، وكون الغاية منها سعادة الدنيا والآخرة معا ، وكونها يسراً . لا حرج فيها ولا عسر ولا إرهاق ، وكونها قصدا واعتدالا في كل أمر ، لاغلو فيها ولا اسراف ، ولا سيا الزينة والطيبات ، وكونها معقولة سهلة لفهم ، واشتمالها على العزيمة والرخصة ، وكونها مراعى فيها درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، وبناء المعاملات فيها على الظواهر دون البواطن ، وبناء العبادات فيها على الاتباع دون الابتداع ، حتى لايكون فيها تحكم للآراء والرياسات (ص ١٢٥)

(٦) بيان ان حكم الاسلام السياسي الدولي قائم على أساس سلطة الامة واجتهاد أولي الامر على قواعد درء المفاسد ومراعاة المصالح ، والشورى ، والعدل المطلق والمساواة فيه ، وحظر الظلم ، ومراعاة الفضائل في الاحكام ، ولم يوجد في الدنيا دولة ولا حكومة تساوي الاسلام في ذلك ، وفي هذا البحث عدة أصول وقواعد (ص ١٢٨)

(٧) الاصلاح المالي من جميع النواحي التعبدية والادبية والخلقية والاجتماعية والدولية بما لو اتبعته الدول والامم لما شكا الناس في الدنيا من فقر مدقع ، ولا غرم مفظع ، ولا بلشفية باغية ، ولا رأسمالية طاغية ، ولا طمع يهودي ، ولا زهد مسيحي ، ولا تقشف هندي ، ولا بغي إفرنجي ، ولا تعطيل مصلحة عامة ، ولا إرهاق منفعة خاصة ، واذاً لاستغنى البشر به عن الاشتراكية المعتدلة لانه الاشتراكية المثلى (ص ١٣٥)

(٨) اصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على مافيه الخير للبشر وفيه قواعد مؤيدة بشواهد الآيات البينات المثبتة أن دين الاسلام هو وحده

دين السلام ، وان شرور الحروب وطغيانها وتأريثها للعداوات بين البشر لايمكن درؤها الا باتباع قواعده في قصر الحرب على الدفاع ومنع الاعتداء ، وإيثار السلم على القتال ، والصلح على الخصام ، ومراعاة الحق والعدل في المعاهدات ، وخلوها من الدخل الذي يفسدها بجعلها حجة لغلب أمة على أمة ، وإرهاق دولة لدولة ، وقد أوردنا فيه بضع قواعد ، مؤيدة بالنصوص والشواهد (ص ١٤٧)

(٩) إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية من زوجية ومالية وغيرها وتكريمهن واحترامهن ، وهو مالم يوجد في دين ولاقانون قط (١٥٧)

(١٠) تحرير الرقيق ورفع الظلم والاهانة عنه وتشريع الوسائل لمنع تجديده، وإيجاب الاحسان اليه ، الى أن يتم تحريره وابطاله (ص ١٦٣)

تحدي العالم بتعاليم الوحي المحمدي

(وتنفيذه ﷺ في العالم)

تلك عقائد دين محمد، وقواعد تشريعه ، وأصول اصلاحه الاجتماعي والمالي والسياسي، مسرودة بالاجمال، مؤيدة بشواهدها من آيات القرآن، مجردة من حلل المبالغات الخطابية، وعاطلة من حلي الخلابة الشعرية، ونحن المسلمين نتحدى الفلاسفة والمؤرخين من جميع الامم ، ولا سيما أحرار الافرنج ، بأن يأتونا بمثلها أو بما يقرب منها من تاريخ أعظم الانبياء، وأشهر الحكماء، وأبلغ الادباء ، وأنبغ ساسة الاولين والآخرين، مع صرف النظر عن كونه ﷺ كان كما شرحنا أميا نشأ في الاميين ، وجاء بذلك كله بعد استكمال سن الاربعين ، وقد بينا الفرق العظيم بينه وبين موسى وعيسى أعظم أنبياء بني اسرائيل صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين

التنفيذ العملي

ان العلم بما يصلح به حال البشر في أفرادهم وجماعاتهم وشعوبهم علم واسع يقل في الاذكياء من يتقن المدون منه في الكتب والذي يلقن في المدارس ، ثم يقل من يستطيع تنفيذ ما يتعلمه منه في أمة يتولى أمر سياستها وادارة الاحكام فيها.

فهل في الامكان أن يوجد إنسان يضع هذا العلم ذا الشعب الكثيرة ، بل العلوم العالية ، ثم يكون هو الذي يتولى تنفيذها واصلاح أمة كبيرة بها ، ويتم له النجاح في ذلك بنفسه في عصره ؟ ان هذا ليس في استطاعة أحد من البشر ، ولم يقع من أحد منهم فيما غبر ، وأصول هذا الاصلاح وفروعه محفوظة الى اليوم وقد فسد أكثر البشر !!

وأما تنفيذ محمد ﷺ لهذه التعاليم فقد تم في عشر سنين من تاريخ الهجرة الذي كان بدء حياة الحرية ، وقد ظل قبلها يدعو إلى أصولها المجملة عشر سنين أولا بالسر ، ثم بالجهر ، مع احتمال الاضطهاد والايذاء والتعذيب والتهديد بالقتل والنفي ، الذي اضطر المؤمنين إلى هجرة بعد هجرة ، وبعد الهجرة العامة بالتبع له ، كانوا في حالة حرب وقتال مع المشركين كافة ، وكذا أهل الكتاب وكان ﷺ عقد معهم معاهدة بتأمينهم على دينهم وأنفسهم وأموالهم بشرط ألا يظاهروا المشركين عليه فنقضوا عهده ، وظل المسلمون مدة ست سنين ، مدافعين عن أنفسهم في كل قتال دفاع الضعيف المؤيد من الله للاقوياء المخذولين ، وفي أواخر السادسة عقد النبي ﷺ معاهدة الحديبية مع المشركين على وضع القتال عشر سنين ، ثم غدر المشركون ونقضوا العهد ، فعادت حالة الحرب ، وفتح المسلمون مكة عاصمة قريش الدينية والدنيوية ، ومثابة جميع الامة العربية ، في سنة ثمان من الهجرة ، وحج النبي ﷺ حجة الوداع في آخر سنة عشر ، وأنزل الله تعالى عليه فيها (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)

ففي عشر سنين وقع توحيد الامة العربية التي كانت أعرق أمم الارض في الشقاق والتفرق والعداء ، وإنما كان ذلك بتأثير كتاب الله وتأييده عز وجل لرسوله كما قال (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما في الارض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم) وبما أعده تعالى له من مكارم الاخلاق وما وفقه وأرشده اليه من حسن السياسة المبينة في قوله تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر) الآية . وذلك ان العرب كانت أعصى خلق الله على الخضوع والطاعة والانقياد ، لعراقتهم في الحرية ، وشدة

يأسهم ، وعدم ابتلائهم بالملوك المستبدين القاهرين والرؤساء الروحيين المسيطرين، الذين يذللون الامم ويخضعونها لكل ذي سلطان قوي

فليدلنا علماء التاريخ العام على نبي من الانبياء ، أو حكيم من الحكماء ، أو ملك من الملوك الفاتحين والمشترعين ، ربى أمة من الامم في عشر سنين أو أكثر ، فجعلها أهلا لفتح الامصار، والسيادة على الامم الحضرية وسياستها بالعدل والرحمة ، وتحويلها عن أديانها ولغاتها بالاقناع وحسن القدوة ، ولا نشترط أن تكون هذه الامة التي علمها وهذبها ووحدها رجل واحد كالامة العربية فيما وصفنا من حالها

فأين الوحدة الجرمانية والوحدة الطليانية في عصر العلوم والفنون والفلسفة والقوانين ونظم الاجتماع والحرب ، من الوحدة العربية المحمدية في عهد الامية والجاهلية ؟ بل أين الوحدة الاسرائيلية في عهد الآيات والعجائب الكونية، من الوحدة العربية الخاصة ثم الوحدة الاسلامية العامة في عهد آيات القرآن وعلومه الالهية؟

ثم نفذ ذلك التشريع الاعلى، والهداية المثلى، خلفاء محمد الراشدون، وكثير من ملوك المسلمين الصالحين ، بما شهد لهم به تاريخهم، واعترف لهم به المؤرخون المنصفون من الافرنج وغيرهم بالجمع بهما بين العدل والرحمة، وبأنهم جددوا بهما الحضارة الانسانية ورقوها، وأحيوا العلوم والفنون الميتة وهذبوها واستثمروها وكانوا اساتذة العالم فيها

ثم كان من قوة هذا الدين في الحق والفضائل أن عادته جميع أمم الافرنج وحاربته بجميع قواتها الصليبية ، الهمجية منها والمدنية ، ثم بعلومها وفنونها ونظمها المدهشة ، ولا تزال تحاربه وتبذل الملايين من الدنانير لتحويل أهله عنه، بعد زوال قوة دوله، وغلبة الجهل على شعوبه، بجميع أساليب الدعوة المسماة بالتبشير ، وبجميع وسائل القوة والنظام، وترتكب دولهم وجمعياتهم الدينية من رذائل الظلم والبغي والكذب ما يتبرأ من مثله شرار المجرمين ، ولم يستطيعوا له هدما ، ولا ان ينصروا مسلما واحدا .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (التوبة ٩: ٣٢و٣٣)

النتيجة المقصودة بالذات

(دعوة شعوب المدنية: أوربة وأمريكة واليابان بلسان علمائها الى الاسلام)

لاصلاح فساد البشر المادى وتمتيعه بالسلام ، والاخاء الانسانى العام

اذا عجز حكماء هذا العصر وعلماء الحياة والاجتماع والاخلاق والمؤرخون من أحرار الافرنج وغيرهم عن إخبارنا بوجود رجل مثل محمد فيما علم من تاريخه المعروف المشهور جاء بمثل هذا القرآن في خصائصه ولا سيما التعاليم التي لخصنا كلياتها في هذا البحث وقدر أن ينفذها ويربي بها أمة كالامة العربية يكون لها بها من الاثر الديني والمدني في العالم مثل أثرها — وانهم لعاجزون عن ذلك قطعاً — أفلا يكون عجزهم هذا برهانا على ان دين محمد وكتاب محمد وهدي محمد وتربية محمد للامة العربية من خوارق العادات؟

واذا كان هذا حقاً واقعاً ماله من دافع ، فما المانع من عد هذه التعاليم وحياً من رب العالمين ، العليم الحكيم ؟ وما معنى كونها وحياً إلا أنها علم أفاضه الله تعالى على روح محمد وقلبه ، بطريقة خفية غير طرق العلم الكسبية المعروفة للبشر عامة ، وفوق الالهامات القليلة التي تؤثر عن بعض الخاصة ؟ وما معنى كونها معجزة إلا أنها جاءت على غير المعهود في علم البشر الكسبي ، وخلاف المقرر في علم النفس والفلسفة العقلية وسنن الاجتماع ، وتواريخ الامم ، وسير الحكماء والعلماء والملوك ، وفوق المعروف عن الانبياء أيضاً وإن كانت من جنسها . فالانبياء قد أنبؤا ببعض الغيوب الحاضرة في عصرهم والتي تأتي بعدهم — وأنبأ محمد (ص) بما هو أصرح منها وأظهر وأكثر ، وبغيوب سابقة كانت قبل نبوته بقرون ، ولكن لم يجيء أحد منهم بمثل ما تقدم اجماله في المقاصد العشرة العالية من العلم والحكمة والتشريع ،

قد بينا لكم أيها العلماء الاحرار بطلان ما اخترعته عقول المنكرين لنبوة محمد ﷺ من العلل والآراء لجعل ماجاء به من العلم الالهي الاعلى ، والتشريع المدني الاسمى ، والحكمة الادبية المثلى ، نابعا من استعداده الشخصي ، وما اقتبسه من بيئته ومن أسفاره ، مع تصغيرهم لهذه المعارف جهلا أو تجاهلا ، وعلمتم أن بعض ماقالوه

افتراء على التاريخ ، وان ما يصح منه عقيم لا ينتج ما ادعوه ، وعلمتم انه في جملته مخالف للعلم والفلسفة وطبائع البشر وسنن الاجتماع ووقائع التاريخ

ونحن نتحداكم الآن بالاتيان بعلل أخرى لما عرضناه على أنظاركم من وحي الله تعالى وكتابه لمحمد ﷺ مع القطع من تاريخه — علل يقبلها ميزان العقل المسمى بعلم المنطق

فان لم تستطيعوا — ولن تستطيعوا — أن تأتونا بعلل تقبلها العقول، وتؤيدها النقول، فالواجب عليكم أن تؤمنوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته، وبكتابه المنزل عليه من عند الله تعالى لاصلاح البشر ، وأن تتولوا الدعوة إلى هذا الايمان ، ومعالجة أدواء الاجتماع الحاضرة به ، بعد أن عجزت علومكم الواسعة ، وفلسفتكم الدقيقة ، عن وقف سريان عدوى فساد الاباحة وعبادة الشهوات وفوضى الافكار في الامم ، وعجزت عن منع دول حضارتكم أن تنفق معظم أموالها المنتزعة من شعوبها ومستعمراتها في الاستعداد لحرب البغي والعدوان المدمرة، وتأريث العداوات بين شعوب الارض كافة ، فقد كان غاية شوط هذه العلوم الواسعة عند هذه الدول أعظم نكبة على البشر ، فان أبيتم وتوليتم أيها العلماء فعليكم إثم شعوبكم ودولكم وسائر البشر

علوم البشر لا تستقل بهدايتهم ، لانهم لا يدينون الا لوحي ربهم

ألا انه قد ثبت بالحس والعيان ان العلم البشري وحده لا يصلح أنفس البشر لأنهم لا يخالفون أهواءهم وشهواتهم الشخصية والقومية باتباع آراء أفراد منهم، وانما يدينون بوازع الفطرة ، لما هو فوق معارفهم البشرية وهو ما يأتيهم من ربهم، ولا يوجد في الارض دين عام كامل صحيح ثابت إلا دين الاسلام، وقد بينا لكم أصول تشريعه الروحي والسياسي والاجتماعي الصالح لكل زمان ومكان ، وانه دين السلام والحق والعدل والمساواة التي تعطي كل شعب وكل فرد حقه ، فبها وحدها يمكن البرء من الادواء المالية والسياسية والحربية والاجتماعية كلها ، فاليهودية دين موقت خاص غير عام ، والمسيحية اصلاح روحي لليهودية ليس فيها تشريع، (ان الدين عند الله الاسلام ، وما اختلف الذين أوتوا الكتاب الا من بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم، ومن يكفر بآيات الله فان الله سريع الحساب) فلئن اهتدت به أمة قوية منظمة لتصلحن به سائر الامم، ولتكونن لها السيادة العليا في جميع الارض.

الرجاء في العلماء المستقلين ، دور السياسيين

قد دعا بعض العلماء منكم إلى عقد مؤتمر من كبار علماء الشعوب كلها للبحث في الوسائل التي يمكن أن تقي حضارة العصر من الدمار ، ولئن عقد هذا المؤتمر فلن يكون أمثل ولا أرجى من هذه المؤتمرات التي تعقدها الدول في جامعة الامم وعواصم السياسة، وهي لما تزد الادواء إلا إعضالا، والاخطار إلا تفاقما، وانما الدواء الواقي المضمون بين أيديهم وهم لا يبصرون ، وحجته البينة تناديهم ولكنهم لا يسمعون (ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون)

وأما أنتم أيها العلماء المستقلو العقول والافكار ، فالمرجو منكم أن تسمعوا وتبصروا ، وأن تعلموا فتعملوا ،فان كانت دعوة القرآن لم تبلغكم حقيقتها الكافلة لاصلاح البشر ،على الوجه الصحيح الذي يحرك إلى النظر ، لانكم لم تبحثوا عنها بالاخلاص ، مع التجرد من التقاليد المسامة عندكم والاهواء ، ولان الاسلام ليس له زعامة ولا جماعات تبث دعوته ، ولا دولة تقيم أحكامه وتنفذ حضارته ، بل صار المسلمون في جملتهم حجة على الاسلام وحجابا دون نوره ، فارجو ان يكون هذا البحث كافياً في بلوغ الدعوة اليكم بشرطها المناسب لحال هذا العصر ، فان ظهر لكم بها الحق فذلك ما نبغي ونرجو لخير الانسانية كلها ، وإن عرضت لكم شبهة فيها فالمرجو من حبكم للعلم ، وحرصكم على استبانة الحق، أن تشرحوها لنا لنعرض عليكم جوابنا عنها ، والحقيقة بنت البحث كما تعلمون

ولا أراكم تعدون من الشبهات الصادة عن الاسلام (بعد ان ثبتت أصوله بما ذكرنا) ان فيه أخبارا عن عالم الغيب وراء المادة لا دليل عليها عندكم ، فانما مصدر الدين عالم الغيب، ولو كان مما يعلمه البشر بكسبهم لما كانوا في حاجة الى تلقيه من الوحي، وقد بينا ان تعاليم القرآن قد أثبتت أنه وحي من عالم الغيب، وقامت برهانا على وجود الله وعلمه وحكمته ،فوجب أن تؤخذ أخباره بالتسليم ، وحسبكم انه ليس فيه منها ما يقوم البرهان على استحالته ، وان منها ما كان يعد من وراء ادراك العقل ، ثم كان من ثمرات العلم وجوده بالفعل ، كتخاطب أهل الجنة وأهل النار على ما بينهما من البعد

وأما أخبار القرآن عن عالم الغيب المادي من تكوين وتاريخ فمن معجزاته الايجابية أنه جاء فيه كثير من التعبيرات التي كشف العلم والتاريخ في القرون الاخيرة من معانيها مالم يكن يخطر في بال أحد من أهل العصر الذي نزل فيه، ومن معجزاته السلبية انه لم يثبت على توالي القرون بعد نزوله شيء قطعي ينقض شيئا من أخباره القطعية، على ان أخباره هذه انما جاءت لاجل الموعظة والعبرة والتهذيب، ويكفي في هذا أن تكون الاخبار على المألوف عند الناس، ولا ينتقد عليها اذا لم تشرح الحقائق الفنية والوقائع التاريخية لأنها ليست مما يبعث الرسل لبيانه ومنها مالا يمكن الوقوف عليه إلا بالتعمق في العلم أو الاستعانة بالآلات التي لم تكن معروفة عند المخاطبين الاولين بالوحي، بل لا يصح أن يأتي فيها ما يجزمون بانكاره بحسب حالتهم العلمية لئلا يكون فتنة لهم، وقد قال نبي الانسانية العام «أنتم أعلم بأمور دنياكم» رواه مسلم في صحيحه

ومن دقائق تعبير القرآن في النوع الاول (التكوين) ان مادة الخلق «دخان» وهو عين مايسمى السديم، وان السموات والارض كانتا رتقا أي مادة واحدة متصلة ففتقهما الله وجعل كلا منهما خلقا مستقلا، وبث فيهما أنواع الدواب، وانه جعل من الماء كل شيء حي، وانه خلق جميع الاحياء النباتية والحيوانية أزواجا فجعل في كل منها ذكراً وانثى، وانه جعل كل نبات موزونا، يعني ان عناصره متوازنة على نسب مقدرة، وانه أرسل الرياح لواقح، وانه « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » والتكوير هو اللف على الجسم المستدير، وأمثال هذا فيه كثير

وأعجب منه إثباته ان للخلق سننا لا تتبدل وبيانه لكثير منها ومن سنن الاجتماع التي لم يهتد البشر اليها بالبحث العلمي الا بعد بيان القرآن لها بقرون، ولم أوردها في هذا البحث، لانها قد يقال انها مما يعرف بالعقل، وليست من موضوع الوحي،

(قُلْ أَرَءَيتمْ إنْ كانَ منْ عنْدِ اللهِ ثمَّ كفَرْتمْ بهِ: منْ أَضلُّ ممنْ هو في شقاقٍ بَعيدٍ * سنُريهمْ ءايٰتِنَا في الآفاقِ وفي أَنْفسِهمْ حتى يتَبينَ لهمْ أنَّهُ الحقُّ، أَولَم يَكفِ بربِّكَ أَنَّهُ على كلِّ شيءٍ شَهيدٌ * أَلا إنَّهم في مِرْيَةٍ منْ لِقَاءِ ربِّهمْ، أَلاَ إنَّهُ بكلِّ شيءٍ محيطٌ) (آخر حم. فصلت)

﴿ تم الكتاب ولله الحمد أولا وآخرا ﴾

فهرس الكتاب

١–٨ فاتحة الكتاب وفيها بيان موضوعه وحاجة البشر كلهم الى الاسلام
٩ إقامة الحجة على مثبتي الوحي ونفاته في اثبات نبوة محمد ﷺ
١١ تعريف الوحي والنبوة عند النصارى
١٣ مايرد على نبوتهم من نقد واعتراض
١٤ امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله
١٨ صد الكنيسة عن الاسلام وبغيه عوجا
١٩ مسألة الآيات والعجائب النبوية
٢٠ العجائب وما للمسيح (ع . م) منها ، وبحث فيها
٢٣ آية نبوة محمد ﷺ عقلية وسائر آياته الكونية
٢٤ تأثير العجائب في الافراد والامم
٢٥ ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها لغيرها
٢٦ درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ
٢٧ شبهة منكري عالم الغيب على الوحي
٢٩ الوحي النفسي كالذي وقع لجان دارك الفرنسية والفرق بينه وبين وحي النبوة .
٣٣ تفصيل الشبهة ، ودحضها بالحجة . وفيه بيان ماأورده موسيو أميل درمنغام في كتابه حياة محمد في عشر قضايا
٤٣ باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ
٤٨ بسط مايصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ من كتاب حياة محمد لدرمنغام
٥٠ تفنيد تصويرهم للوحي النفسي من عشرة وجوه
٥٥ القول الحق في استعداد محمد ﷺ للنبوة
٥٩ آية الله الكبرى — القرآن العظيم
٦١ أسلوب القرآن الخاص واعجازه به وحكمة التكرار فيه (وهو مالم يسبق لاحد بيانه) .
٦٢ الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في العالم
٦٦ فعل القرآن في أنفس العرب نوعان

صفحة

٦٧ فعل القرآن في مشركي العرب
٦٩ « « « أنفس المؤمنين
٧٠ مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الانسان

(المقصد الاول للقرآن)

٧١ (اصلاح أركان الدين الثلاثة التي أفسدها أهل الكتاب)
٧٢ الركن الاول للدين الايمان بالله واصلاح القرآن فيه
٧٥ « الثاني عقيدة البعث والجزاء
٧٩ « الثالث العمل الصالح
٨٠ ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

(المقصد الثاني من القرآن)

٨٣ بيان الاسلام لما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة
٨٧ فصل في الآيات الكونية التي أيد الله بها رسله وما يشبهها من الكرامات وما يشتبه بها من خوارق العادات
٨٨ سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب ، وان الغيب قسمان حقيقي واضافي
٨٩ الخوارق الحقيقية والصورية عند الامم
٩١ الفرق بين المعجزة والكرامة
٩٤ المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية عليها
٩٧ الخوارق الكسبية والحقيقية . والمعجزات التكوينية والروحانية
٩٩ عبادة بعض الناس للمسيح وللاولياء دون موسى (ع . م)
١٠٢ ختم النبوة وانقطاع الخوارق ومعنى الكرامات
١٠٣ لا يمكن اثبات معجزات الانبياء الا بالقرآن
١٠٥ خلاصة الخلاصة لهذا الفصل
١٠٧ الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

صفحة

(المقصد الثالث للقرآن)

١٠٨ بيان ان الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة، والضمير والوجدان، والحرية والاستقلال
١١٦ منع الاسلام للتقليد والجمود، على اتباع الآباء والجدود
١١٧ دحض شبهة ، واقامة حجة، في سبب دعوى الاجتهاد والاعراض عن المذاهب
١١٨ الحرية الشخصية في الدين ومنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة فيه

(المقصد الرابع للقرآن)

١١٩ الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي بالوحدات الثمان
وحدة الامة والجنس والدين والتشريع والاخوة الروحية والمساواة في التبعة والجنسية السياسية والقضاء واللغة

(المقصد الخامس للقرآن)

١٢٥ في مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات

(المقصد السادس للقرآن)

١٢٨ بيان حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة
١٣١ أصول التشريع الاربعة وقواعد الاجتهاد
١٣٣ نصوص القرآن في العدل المطلق والمساواة وحظر الظلم
١٣٥ قاعدة مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات بين الناس

(المقصد السابع للقرآن)

١٣٥ الارشاد الى الاصلاح المالي وهو يدور على سبعة أقطاب
١٣٦ (١) كون المال فتنة واختباراً في الخير والشر وشواهده من القرآن
١٣٨ (٢) ذم طغيان المال وغروره وصده عن الحق والخير « »
١٣٩ (٣) ذم البخل بالمال والكبرياء والرياء في انفاقه « »

صفحة

١٤٠ (٤) مدح المال والغنى بكونه نعمة وحزائه على الايمان والعمل وشواهده من القرآن.
١٤٢ (٥) وجوب حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه » »
١٤٣ (٦) انفاق المال في سبيل الله آية الايمان » »
١٤٥ (٧) الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي » »

(المقصد الثامن للقرآن)

١٤٧ اصلاح نظام الحرب ودفع مفاسدها وقصرها على ما فيه الخير والمصلحة للبشر
١٤٨ خطر الحروب وفساد المعاهدات الدولية وعلاجها بالاسلام
١٤٩ أهم قواعد الحرب والسلام في الاسلام وهي سبع قواعد

(المقصد التاسع للقرآن)

١٥٧ اعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية وفيه عشر قواعد

(المقصد العاشر للقرآن)

١٦٣ تحرير الرقاب (الرقيق) ومنعه وله طريقتان
١٦٤ الطريقة الاولى منع الاسترقاق من أصله
١٦٥ « الثانية تحرير الرقيق الموجود وهو أنواع في الأول عشر مسائل.
١٦٨ النوع الثاني تحرير الرقيق في الكفارات والثالث من مال الزكاة
١٦٩ « الرابع العتق الاختياري - ويليه الوصية بالمماليك
١٧٠ ﴿خلاصة البحث في مسألة الوحي﴾

(خاتمة الكتاب)

١٧٢ في دعوة شعوب المدنية الى الاسلام لانقاذ البشر واصلاح فسادهم.

٣ تمهيدات

» (١) دين الله على ألسنة أنبيائه المتقدمين
١٧٣ (٢) ثبوت تاريخ محمد بنقل لم يثبت بمثله تاريخ غيره
١٧٤ (٣) اشتداد حاجة البشر في عصرنا الى الدين

(مقدمات اثبات الوحي المحمدي)

(١) نشأة محمد ﷺ وفقره وأميته

١٧٥ (٢) عيشته في العزلة وزهده في الرياسة والشهرة وعدم عنايته بالشعر والخطابة

١٧٦ (٣) خلوه وكرهه من منصب النبوة وعدم رجائه فيها

١٧٨ (٤ و ٥) مفاجأة الوحي له كهلا، وكون النبوغ في الكهولة محال طبعا

١٧٩ (٦) الفرق بين محمد وموسى وسائر النبيين في العلم والعمل

١٨٠ موضوع الدعوة المحمدية وكتابها القرآن

١٨١ القرآن - بعض دلائل على انه من عند الله لا من عند محمد ﷺ

١٨٦ النتيجة لهذه المقدمات ومعنى كون القرآن كلام الله

١٨٧ أصول الدعوة المحمدية ومقاصدها الشر المتقدمة

١٨٩ تحدي العالم بتعاليم الوحي المحمدي وتنفيذه ﷺ لها

(النتيجة المقصودة بالذات)

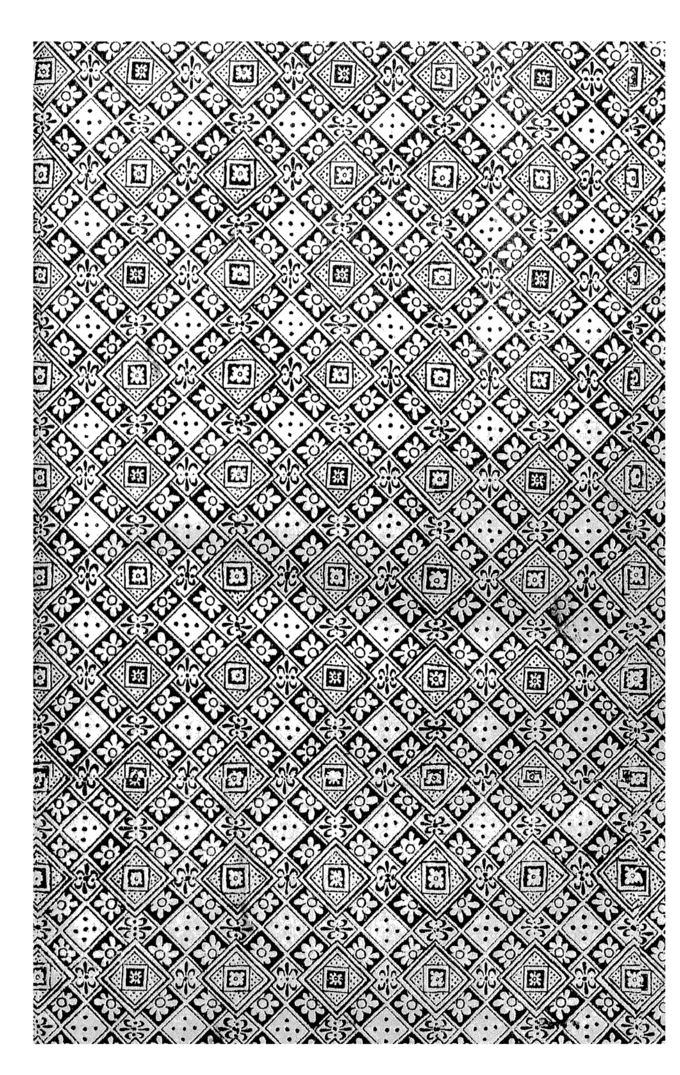
١٩٠ قيام الحجة على ثبوت نبوة محمد وشدة حاجة البشر اليها ، دعوة شعوب الحضارة الى الاسلام دين الاخوة الانسانية والسلام

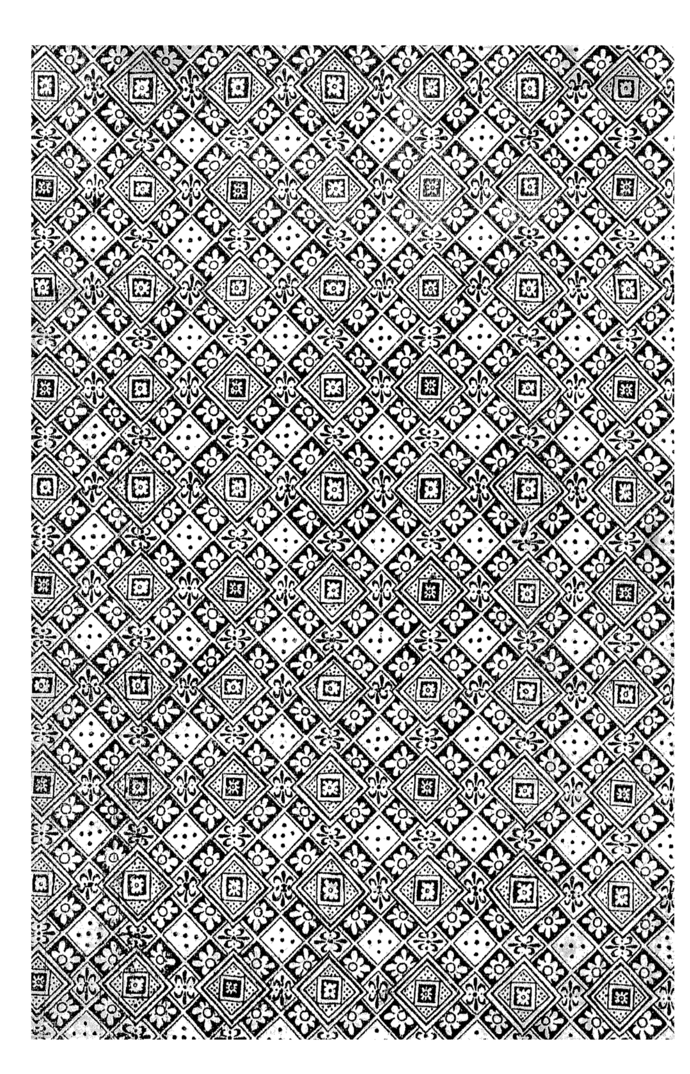
١٩٣ بلوغ دعوة القرآن لعلماء الافرنج واستعداد المسلمين لكشف كل شبهة لهم عليها

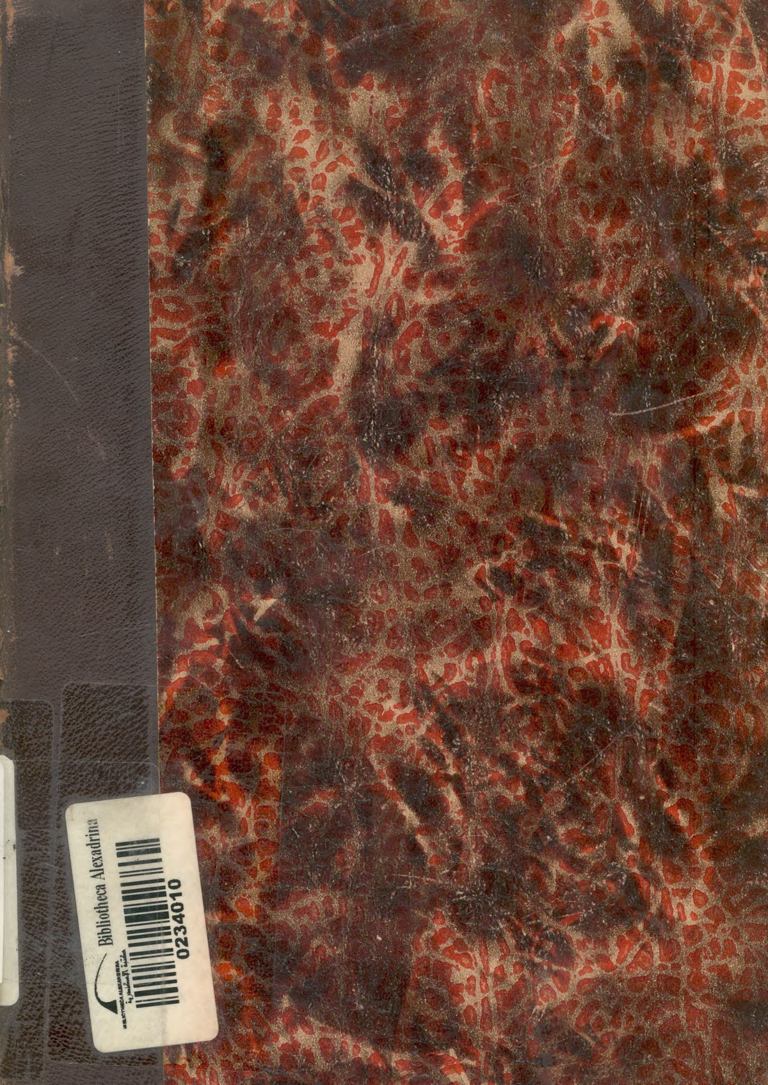
١٩٤ ختم الدعوة بخاتمة سورة حم فصلت

﴿ تصويب ماوقع من خطأ الطبع في الكتاب ينبغي تصحيحه بالقلم ﴾

في صفحة ٢٧ سطر ٩ ووجهة نظرهم - ص ١٩ س ١٧ وهي القرآن - ص ٣٩ س ١٧ أن سببه - ص ٤٤ س ٢٥ أي كن - ٤٥ س ١٨ هذه المرة - ٥٦ س ١٤ اذ كانوا - ص ٥٧ س ٤ ابن عمها ورقة ٦٣ س ٤ كما بيناه ص ٦٧ س ٣ ﴿ راجع ص ٥٣ ﴾ ص ٦٩ س ٢١ مزقها - ص ٧٢ س ٢٣ وأوغله في ضعفاء العقول - ص ٨٥ س ٨ نابع و س ١٤ واحدة ... بتبليغ رسالته ص ٩٦ س ٨ لبثهم - ص ١٠٥ س ١٨ لتزداد - ص ١١٨ س ٢ بعصمة - ص ١٢٧ س ٨ تحريمها - ص ١٣٧ س ٢١ (وكذب - س ٢٢ اعترف بها ص ١٤٠ س ١٧ إن شاء - ص ١٤٢ س ١ ولولا ان - ص ١٤٥ س ٢٣ فرض نفقة - ص ١٤٩ س ١٩ غير قابل - ص ١٥٣ س ٢ المعبر عنه - ص ١٥٧ س ٢٢ وكانت تورث - ص ١٦٥ س ٢٣ اللازبة - ص ١٧٣ س ٤ وسوء - ص ١٧٤ س ١٦ قبلها ص ١٧٥ س ٤ العشرة ص ١٨١ س ١٢ تشريعه - ص ١٨٣ س ٣ وانزل الله - ص ١٨٤ س ١٦ انه عاش






Bibliotheca Alexadrina
02234010